جمال يحياوي

سقوط غرناطة
و
مأساة الأندلسيين
1492-1610م

دار هومه

جمال يحياوي

سقوط غرناطة

و

مآساة الأندلسيين

1492 - 1610م

الصنف: 4/181

طبع في 2004

دار
هومه
للطباعة والنشر والتوزيع
34 حي لابروفار- بوزريعة- الجزائر
الهاتف : 021.94.19.36 الفاكس : 021.94.17.75
021.94.41.19 021.97.75.51

بسم الله الرحمان الرحيم

الإيداع القانوني:2004/1615
ر.د.م.ك ISBN.9961-66-801-4

الإهـــــداء

إلى أبــي وأمــي

إلى أبنائي: هديل ،مصطفى شكيب ،أسيا

إلى رفيقة دربي :

إلى جيــل الإستــقــلال

أهــدي هذا الكــتــاب

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الاستاذ: أبو القاسم سعد الله

موضوعات بعض الكتب تظلّ جديدة ولو تقادم عليهـــا العهــــد. فموضوع الموريسكيين الذي يرجع إلى القرن السادس عشر والسابع عشر الميلاديين موضوع حيّ لا يموت، لأنه مأساة إنسانية، وهـــو يذكّرنا بمأساة الفلسطينيين في القرنين العشرين والواحد والعشـــرين بل بمآسي الآلاف من المسلمين الذين أجبرهم الاضطهاد العنصري على التشرّد واتخاذ التقية وعبور الحدود، كما حدث في البوســـنة والشيشان وأفغانستان والعراق وغيرهـــا مـــن البلـــدان العربيـــة والإسلامية التي عرفت من جيرانها أو من المعتدين عليها نقمة على العرب والمسلمين، وكأنها تعيش عصر محاكم التفتيش الذي يتحدث عنه الكتاب الذي نقدّمه اليوم إلى القرّاء، وهـــو كتـــاب "**واقـــع المسلمين بعد سقوط غرناطة** " للأستاذ : **جمال يحياوي**.

فهو كتاب يمثل جهدا كبيرا في لملمة أخبار الموريسكيين من مصادر شملت لغات عديدة من عربية وإسبانية وفرنسية. فهـــذه المأســـاة

حدثت على مرأى ومسمع العالم الذي كان يشهد عصر النهضة الأوروبية ومع ذلك لم يحرك ساكنا ضد التعصّب الديني والعنصري الأعمى، وهو العصر الذي شهد أهله حتى في أوروبا نفسها مظاهر منكرة من هذا التعصب ضد ثورات المصلحين من أمثال مارتن لوثر، والهوغوناتية، والكالفينيين. فلماذا بقي مسلمو الأندلس خارج هذا العصر الموسوم من جهة بالنهضة والانطلاق نحو النور والمعرفة، ومن جهة أخرى بالتعسّف والاستبداد والجحود الأعمى. ففي الوقت الذي كانت فيه إسبانيا الكاثوليكية تحدّ سكاكينها ضد المسلمين، كانت البابوية في روما تشهر سيوفها ضد المحتجين على فسادها وتعفنّها سواء في ألمانيا أو في إنجلترا. وعندما ملّ الجميع وخرّبت البيوت وهرب اللاجئون إلى العالم الجديد وغيره رفع قادة أوروبا شعار التعايش بين الطوائف والقبول بالآخر منهم. أما المسلمون فقد طوردوا من قارّة إلى قارّة أخرى وحرموا من أبسط الحقوق الدينية والمعيشية والإنسانية. ومع ذلك تأتي أوروبا اليوم لتعلن للمسلمين أنها هي معلمة الحضارة والمدافعة عن حقوق الإنسان.

وأذكر أنه حين أصدر المرحوم أحمد توفيق كتابه (حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا) جاءني أحد المستشرقين (القساوسة) الإسبان وأبدى احتجاجه على عنوان الكتاب، وكان

من رأيه أن الشيخ المدني قد بالغ في دعواه، وأن عنوان الكتـــاب لا يخدم العلاقات الجزائرية- الإسبانية في العصر الحديث. والغريب أنه في الوقت الذي كانت فيه إسبانيا تعامل المسلمين المعاملة المعروفـــة في المدونات الرسمية كان المسلمون في الجزائر يتركـــون للأســـرى الإسبان حرية عقيدتهم وممارسة شعائرهم الدينية، بل كانوا يتركون لهم كنائسهم ونواقيسهم ورهبانهم وخمورهم، وقيـــل: إنّ هـــؤلاء المسلمين كانوا يحترمون الإسباني المتديّن ويفضلونه في التعامل على الإسباني غير المتديّن.

(أنظـــر بحـــث: Ellen G.Friedman, The Exercise of Religion by Spanish Captives in North Africa, In Sixteenth Century Journal, VI. (April, 1975),pp

ومن التناقض في التاريخ أن الكتّاب الأوروبيين يعجبـــون بالأمبراطور شارل الخامس الذي قاد حملته الضـــخمة (الأرمـــادة) المعروفة ضدّ مسلمي تونس سنة 1535، والجزائر ســـنة 1541 واعتبروه من فرسان الكنيسة لأنه كان الجندي المدافع عـــن القـــيم الكاثوليكية العتيقة والمحارب غير المهادن للحركات المناهضة للسلطة البابوية والواقف ضدّ كل ثائر أو محتج على تصرفات القساوســـة والرهبان. كما ألفّ مؤلفوهم كتبا في الإشادة بمآثر حفيده —فيليب

الثاني- معتبرين عصره عصر العظمة والقوة ليس لإسبانيا فقط ولكن لأوروبا كلها لأنه وقف ضدّ سيطرة الدولة العثمانية على البحر الأبيض المتوسط وضد احتكار سليمان القانوني السلطة في البلقان.

أمّا دور الموريسكيين في فتح العالم الجديد وقيادة رحلات كولمبس إلى أمريكا واكتشاف الثروات التي جعلت من إسبانيا الدولة الأولى عندئذ في الثورة والهيمنة، فما يزال غير مدروس. فلا المسلمون تمكّنوا من المصادر التي تدعّم آراءهم ولا الأوروبيون تخلّصوا من عقدة التبعية الحضارية للمسلمين، رغم أنّ هؤلاء كانوا في مرحلة التدهور والسقوط. إنّ المصادر التي تشير إلى دور الموريسكيين في قيادة أسطول كولمبس وتوفير الخرائط له وتزويده بالخبرات في علم البحار ما تزال ضنينة، وربما تكون قد دفنت مع أصحابها الذين فضلوا المغامرة والخروج من جحيم محاكم التفتيش في إسبانيا إلى أعالي البحار والعالم المجهول من اليابسة. وبالطبع فإنهم لم يرجعوا إلى الجحيم الذي كانوا فيه وفضلوا الحرية والعيش إلى جانب الهنود الحمر والأنكا، مسجلين على الأحجار وشواهد القبور والرقوق بالعربية أحيانا وبلغة رمزية خاصة بهم أحيانا أخرى.

ونعتقد أنه لم يكن هدف **الأستاذ يحياوي** دراسة ملف الموريسكيين في كل مظاهره وأزمانه، وإنما هدفه استلال أوراق

خاصة منه تتعلق بمحنتهم حين كان عليهم أن يظهروا الكفر ويخفوا الإسلام حفاظا على حياتهم وبقائهم في أرض الآباء والأجداد. ورغم قلة الدراسات حتى الآن عن هذا الملف، فإنه جمع حوله مادة هامة أتاحت له تحليل الظاهرة بتفصيل غير ممل، بل في أسلوب مشوّق للقارئ الذين يريد أن يعرف كل أبعاد القضية. ذلك أن هناك أطرافا كثيرة في هذا الموضوع، منها الكنيسة ورجالها، والملوك وحاشيتهم، والجيوش وأسلحتها، وأعيان الفكر والثقافة، والتجار الذين خلت لهم المدن التي خرج منها المسلمون أو قلّ عددهم فيها. وهناك الأثر الاجتماعي والاقتصادي لخروج المسلمين في جماعات ومآل أمر التجارة والزراعة والصناعة والفنون والعلوم في المدن الإسبانية. أما الأطراف الأخرى فمنها الدولة العثمانية وسلاطينها، وفرسان البحر الذين كانوا ينجدون المسلمين الذين وقعوا بين فكي الحوت العظيم. وهناك أهل المغرب العربي وملوكهم وأمراؤهم الذين كانت تدبّ في نفوسهم الحمية الدينية والغيرة القومية ولكنّهم كانوا عاجزين على توفير وسائل النجدة والنجاة لإخوانهم الموريسكيين.

وقد قسّم **الأستاذ يحياوي** كتابه إلى أربع فصول ومقدمة وخاتمة وأضاف إليه ملاحق ليست جديدة في الواقع ولكنها ذات صلة بالموضوع، منها فتوى بعض الفقهاء للموريسكيين بالبقاء في

الأندلس رغم الاضطهاد مع اللجوء إلى التقية. ومن هذه الملاحق رسالة من أهل الأندلس إلى السلطان سليمان القانوني يستصرخونه ويصفون فيها حالهم. ومنظومة طويلة في وصف حالهم البائسة للسلطان بايزيد الثاني العثماني. وأخيرا نص المعاهدة التي تضمنت بنود تسليم مدينة غرناطة للملك الإسباني والضمانات المعطاة لمسلميها، وهي الضمانات التي لم يطبق منها فعليا أي بند. بل دِيسَ عليها بمجرد الانتصار على المسلمين. وقد حدث لاتفاق الجزائر سنة 1830 على يد القائد الفرنسي (كلوزيل) ما حدث لمعاهدة غرناطة سنة 1492 على يد الملك الإسباني.

ليس العبرة من دراسة التاريخ أن نكرر الإدانة لمن ارتكبوا الأخطاء وظنوا أن التاريخ سيتوقف عند أقدامهم، وإنما العبرة أن ندرس التاريخ لكي ندين من يستحق الإدانة ولو بعد آلاف السنين. فالتاريخ حي ولو ظهر لبعض الناس أنه قد أصبح نسيا منسيًّا، وكلما تقادم العهد ازداد الإنسان به عبرة واعتبارا لأنه مجموعة من أفعال البشر الدالّة على تقدمه أو تخلفه، على رفعته أو انحطاطه على أنه أقرب إلى الملائكة أو إلى الوحوش.

وأخيرا فإننا نرجو أن يصفّي **الأستاذ يحياوي** كتابه من العبارات القاسية الناطقة بالإدانة بنفسها، وأن يترك الأرقام والمعاملات المدوّنة تتحدّث عن نفسها بنفسها. فالمجرم تدينه أعماله لا أقوال

القاضي الذي ينطق بالحكم عليه. ونحن نتوقع لهذا الكتاب أن يكون إضافة في المكتبة الأندلسية التي ظلت تعاني من قلة الحديث عن الأندلس بعد سقوط غرناطة بينما الواقع أن هذا السقوط كان منطلقا للمرحلة الثانية من تاريخ الأندلس، أي التاريخ الذي نعيش اليوم بعض فصوله في أندلسيات عديدة.

أ.د أبو القاسم سعد الله

.2003/12/5

مقدّمة:

إنّ اهتمامنا بموضوع المسلمين بعد سقوط غرناطة يعود إلى أيام الدراسة الجامعية، أين كنا نقف عند سقوط الأندلس ولا نعرف ماذ ا جرى للمسلمين الذين كانوا في غرناطة وضواحيها بعد دخول المدينة تحت عهدة الملكين الكاثوليكيين **إيزابيلا وفيرديناند** عام **1492**م؟، وزاد تعلّقي بالموضوع أكثر بعد إطلاعي على بعض الكتابات حول النهاية المأساوية للأندلسيين.

فالنهاية المأسوية للأمة الأندلسية قلّما نجد لها نظيرا في التاريخ رغم أن أمما عديدة عرفت نهاية تراجيدية، فالدّارس يجد نفسه وهو يتصفّح يوميات المسلمين المتبقين في الأندلس بعد السقوط أمام مشهد مروّع يصوّر المعاناة اليومية للمسلمين الدّاخلين تحت سلطان الإسبان عنوة، فثنائية التحدي قائمة بين الطرفين الإسباني والمسلم، فالإسبان ممثّلين في شخص الملكين فرديناند وإيزابيلا والكنيسة الكاثوليكية يسعون جاهدين إلى تنصير المسلمين بكل الوسائل والأساليب ضاربين عرض الحائط

كل القيم والمبادئ الإنسانية، والمسلمين من جهتهم يـدافعون باستماتة لا نظير لها من أجل المحافظة على دينهم وأرواحهـم وسط بيئة معادية.

ومن هنا نجد في تاريخ هؤلاء المسلمين ازدواجية الحزن والأسى والإكبار والإعجاب والأكثر من ذلـك كلـه روح التحدي التي اتسم بها المسلمون في مواجهة سياسـة التنصـير القسري، والتهجير الجماعي، وقرارات محاكم التفتيش الجائرة.

ورغم عمق القضية فإن المؤرخين لم يهتمّوا بمرحلة مـا بعد السقوط، فجلّ الكتابات التاريخية فصّلت الكثير في تاريخ الأندلس منذ الفتح حتى السقوط.

مثل الاهتمام بالأبطال الفاتحين أو فلاسفة القرون الثلاثـة، في حين أهملت الفترة التي أعقبت ها التاريخ رغم بقـاء شـريحة كبيرة من المسلمين هناك. ومن المستغرب أنه لم يجر نقـاش في العالم الإسلامي حول هذا المظهر الأخير من تجربة المسلمين في إسبانيا، لكن هذا لا ينفي الجهود التي بدأت تظهر في السنوات الأخيرة لنفض الغبار عن تاريخ الأندلسيين خاصـة بعـد أن عرفت السياسة الإسبانية نوعا من الإنفتاح في هذا المجال بفتحها

أبواب مكتبة الإسكوريال للباحثين، وبذلك برز بعض المؤرخين المتخصصين في التاريخ الموريسكي (*) إنّ يوميات الموريسكيين الغنية بصور التحدي هي التي دفعتهم إلى إتباع أسلوب التقيـــة لضمان البقاء في أرض الأندلس والإفلات من قبضـــة محـــاكم التفتيش، وهي التي دفعتنا إلى التركيز على موضـــوع التّقيـــة ودورها في الحفاظ على الشخصية الموريسكية بالأندلس، وقد حددنا الإطار الزماني للموضوع بين 1492م-1610م أي من تاريخ السقوط إلى صدور قرار الطرد النهائي للمسلمين من إسبانيا، وقد قسمت الموضوع إلى أربعة فصول:

- تناولت في **الفصل الأول**: واقع الموريسكيين ومحنتهم عالجت فيه الأيام الأخيرة لغرناطة التي بسقوطها تبدأ محنـــة هـــؤلاء ثم شرحت معنى التقية لغة وتاريخا مبرزا تطوّرها منذ عهد الرسول (ص).

---

* وهي التسمية التي أطلقها الإسبان على المسلمين المتبقين في الأندلس بعد السقوط. وأصبحت مصطلحا متداولا بين المؤرخين ونستعمله في كثير من الصفحات من هذه الدراسة.

- أمّا **الفصل الثاني** فتناولت فيه: الدوافع التي أدت بالأندلسيين إلى ممارسة التقية لأوضحّ أنهم أجبروا على انتــهاج أســلوب المداراة و لم يكن ذلك اختيارا منهم، ومن بين الدوافع تعنّــت محاكم التفتيش وإصرارها على تنصير المسلمين بالقوة، ورفض الكنيسة للحوار مع المسلمين الأندلسيين وغلق كــل أبــواب التعايش ثم نقض معاهدة غرناطة الموقعة بين الطــرفين، والــتي تعهدّ بموجبها الطرف الإسباني بضمان حقوق المسلمين بما فيها حرية المعتقد.

أمّا **الفصل الثالث**: فخصّصته للحــديث عــن التقيــة كأسلوب دفاع بعد أن استنفذ المسلمون الأندلســيون ســبل التفاهم مع الإسبان، فالتقية كانت آخر حلّ يلجأ إليه هؤلاء، ثم أنّها تسمح لهم بتجنب المواجهة المباشرة في بادئ الأمر لعــدم توازن القوى بين الطرفين وتمكنهم كذلك من التحضير الجدّي لأي عمل عسكري سيقومون به بعد ذلك.

وفي **الفصل الرابع** والأخير تعرّضت إلى كيفية ممارسة التقية في مختلف مجالات الحياة الدينية، الاجتماعيــة، الثقافيــة

لأبرهن على نجاعة أسلوب التقية في محافظة المسلمين الأندلسيين على دينهم وعاداتهم الإجتماعية طيلة أكثر من قرن إلى غاية طردهم النهائي من إسبانيا.

وختمت الدراسة بمجموعة من الوثائق كملحق لهذا البحث والتي رأيناها ضرورية لتقريب الرؤى أكثر حول موضوع المسلمين الأندلسيين مثل نص معاهدة غرناطة ونماذج للكتابة الألخمايدية، ورسائل الإستغاثة التي بعث بها الأندلسيون...إلخ.

وفي الأخير لا يفوتني إلاّ أن أتقدّم بخالص الشكر إلى الأستاذ **إبراهيم فخار** على إشرافه على هذا العمل الذي قدّم لنيل شهادة **الماجستير** في التاريخ الحديث والمعاصر من جامعة الجزائر . كما أشكر كل الأساتذة الذين لم يبخلوا عليّ بتوجيهاتهم ونصائحهم وفي مقدمتهم الأستاذ **ناصر الدين سعيدوني**،وأخصّ بالشكر الجزيل الأستاذ الفاضل **ابو القاسم سعد الله** الذي شرّفني بتقديم هذا الكتاب للقرّاء مع نصائحه العلمية الجليلة.

كلمة عن المصادر والمراجع:

إنّ ما يمكن تسجيله حول المصـــادر المتعلقـــة بتـــاريخ المسلمين الأندلسيين بعد السقوط هو شحّ المصادر العربية الـــتي عالجت الموضوع، والتي يمكن عدّها على الأصابع، وهذا راجع إلى الظروف المأساوية التي عاشها هؤلاء بإسبانيا، ولعلّه مـــن المؤكّد أنهم كتبوا الكثير باللغة الإلخمادية "الأعجمية" كأسلوب من أساليب لمداراة لكن يبقى التنقيب عن هذا التراث وترجمته غاية الباحثين

ومن المصادر العربية القليلة يمكننا أن نذكر:

- **الأنوار النبوية في أنباء خير البرية:** لمحمد بـــن عبـــد الرفيـــع الأندلسي الذي كتبه سنة 1635م، أي عشرون سنة بعـــد الطرد.

- **ناصر الدين على القوم الكافرين** لأحمد بن قاســـم المعـــروف بالشهاب الحجري، وألفه صاحبه بالقـــاهرة عـــام 1637م لشرح محنة المسلمين في الأندلس بعد السقوط.

- **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**: لأحمدالمقري والـــذي عرض فيه فصولا من سقوط غرناطة ومعاناة المسلمين بعـــدها، إضافة إلى إستغاثة الموريسكيين بالسلاطين العثمانيين.

وحتّ المراجع الحديثة فهي قليلة، مقارنـــة بمـــا كتبـــه مؤرخو الغرب المسيحي حول الموضوع.

فإذا إستثنينا ما كتبه الدكتور **عبد الله عنّان** في تـــاريخ الأندلس بأجزائه، خاصة الجزء الأخير: نهاية الأندلس وتـــاريخ العرب المنتصرين وكتاب الدكتور **محمد عبده حتاملة**: التنصير القسري لمسيحي الأنلس في عهد الملكين الكاثوليكيين والمغربي محمد قشتيليوفي: محنة الموريسكيون بإسبانيا والـــدكتور عبـــد الرحمن علي الحجي: محاكم التفتيش في إسبانيا، والدكتور عبد الله حمادي: الموريسكيون ومحاكم التفتيش، وأسعد حومد: محنة العرب في الأندلس، وعادل بشتاوي: الأندلسيون الموار كـــة... فإن المكتبة العربية فقيرة في هذا المجال.

- أما المصادر الأجنبية فهي كـــثيرة ومتنوّعـــة وفي مقدمتـــها الإسبانية لأن الإسبان إهتموا بالصراع الدائر بـــين المســـلمين والكنيسة النصرانية خلال أكثر من قرن، وكتبوا عن الجـــدال

القائم بين المسلمين و المسيحيين بنظرة مسيحية لا تخلو من التعصّب أحيانا، ومن أشهر المؤرخين لهذه المرحلة نذكر : Aznar Cardona أزنار كاردونا مؤلف كتاب: الطرد القانوني للموريسكيين:- وفونسيكابيدرو: -P- Fonseca مؤلف كتاب: علاقات موريسكيي مملكة بلنسية.

إضافة إلى مؤلفات: مارمول كارفاخال Marmol Carvjal وليورنتي Liorenti وقارسيا أرينال M.Garcia Arenal ومن غير الإسبان نذكر الكتابات الإنجليزية للدكتور لي Dr:Lea ووليام بريسكوت William Prescott وبالفرنسية الدكتور كاردياك Cardaillac الذي عالج الجدل اليومي القائم بين المسيحيين والموريسكيين ولابير H.Lapeyre الذي تتبّع توزيع الموريسكيين في إسبانيا في كتابه جغرافية إسبانيا الموريسكية.

وما يلاحظ في هذا الشأن هو بروزجيل من المؤرخين المهتمين بتاريخ الموريسكيين في السنوات الأخيرة في إسبانيا خاصة بعد فتح مكتبة الأسكوريال أرشيفها للباحثين وظهور

إهتمام خاص بفترة التواجد الموريسكي بإسبانيا مـــن خـــلال الملتقيات والندوات التي تنظّم حول الموضوع.

الفصل الأول

الأندلسيون واقع ومحنة

1 – غرناطة وسط الإعصار.

2 – بداية المحنة.

3 – التقية تاريخ ومعنى.

1.1 غر ناطة وسط الإعصار:

من المتعارف عليه عند جلّ المؤرخين والدارسين أن تــاريخ 1492م هو تاريخ سقوط الأندلس نهائيا في يد النصارى الإســبان، وخروج المسلمين من إسبانيا بعد ذلك. وبهذا ضــاعت الجــوهرة الثمينة إلى الأبد بعد ثمانية قرون من العطاء الحضــاري والمعــرفي، مازالت بصماته واضحة في التاريخ الإنساني عامة.

لكن الحقيقة التاريخية تؤكد أنّ تاريخ 1492م هو ســقوط آخر معقل من معاقل الأندلس . إنّها غر ناطة، المدينة الصــامدة في وجه الغزو الأسباني خلال القرون الثلاثة الأخيرة للتواجد الإسلامي و بذلك أصبح سقوط غرناطة هو سقوط الأندلس رغم أن سقوط المدن والحواضر الأندلسية بدأ منذ القرن 11م بســقوط طليطلــة عاصمة إمارة ذي النون [1] سنة 1085م، ورغم انتصار المسلمين في موقعة الزلاقة [2] سنة بعد ذلك فإنهم لم يتمكنوا من استرجاعها، إن

---

[1] وكان صاحبها القادر بالله بن المأمون يحي بن ذي النون، قد خسرها أمام ألفونســو السادس "ALPHONSO" .

[2] معركة الزلاقة (SAGRAJAS) كانت بين جيوش المسلمين بقيادة يوسف بــن تاشفين الذي هب من المغرب لنصرة إخوانه الأندلسيين، وبــين ألفونســو 6-قائــد النصارى الأسبان. وكان النصر فيها لصالح المسلمين في 22 رجب 479هـــ/ الموافق لـــ:02 نوفمبر 1086م.

سقوط طليطلة: يمثل بداية العد التنازلي للإمارات والمدن الأندلسية حيث توالى سقوط المدن الواحدة تلو الأخرى. وسادت روح الاستسلام والانهزام عند الكثير. وقد صوّر الشاعر ابن العسّال [3]، هذه الروح غير المألوفة عند أحفاد المسلمين الفاتحين في هذه الأبيات:

- يا أهل أندلس شدّوا رحالكم ما المقام بها إلا من الغلط
- السلك ينثر من أطرافه وأرى سلك الجزيرة منثورا من الوسط
- من جاور الشرّ لا يأمن بوائقه كيف الحياة مع الحيّات في سفط [4]

وبعد حوالي قرن من سقوط طليطلة وانتصار المسلمين في موقعة الزلاقة، عاود الموحدون الكرة في موقعة الآرك الشهيرة [5] ، لكن زهو الانتصار لم يدم طويلا، إذ ا نهزم الموحدون أمام الإسبان في موقعة العقاب [6] وعادت من جديد روح الاستسلام تطبع

---

[3] هو الشاعر الأندلسي عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال.

[4] انظر القصيدة كاملة عند المقري:

نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب تحقيق محمد محي الدين، ط1.القاهرة 1949/ ج ح: ص: 576

[5] موقعة الارك وتعريف بالإسبانية ب: ALARCOS، بقيادة يعقوب المنصور مللك الموحدين سنة 593هـ/ 1195م.

[6] وتعرف بالإسبانية ب: LAS NAVAS. DI. TOLOSA. وقعت عام 609هـ (1212م).

قصائد الشعراء لسان حال المجتمع آنذاك. فعلى غرار ابن العسال هاهو شاعر اشبيلية [7] يصرخ مناديا للرحيل من أرض الأندلس :[8]

– وقائلة أراك تطيل فكرا   كأنك قد وقفت لدى الحساب
– فقلت لها أفكر في عقاب   غدا سببا لمعركة العقاب
فما في ارض أندلس مقام   وقد دخل البلا من كل باب

وإن مرّ قرن من المد والجزر، عرفت فيه حركة سقوط المدن في يد النصارى نوعا من التوقف فإن مطلع القرن 12م عرف تهاوي المدن و الحصون كما تتهاوى أوراق الخريف، وبدأ وسط السلك ينثر على حد تعبير الشاعر ابن العسّال.

فسقطت سرقسطة سنة (1112م)، وطرطوشة ولاردة سنة 1148م، و أشبونة (1147م)، وجزيرة ميورقة (1229م)، و أبدة (1233م)، وقرطبة حاضرة الأندلس (1236م)، و بلنسية (1238م). وشاطبة ودانية (1240م). و مرسية (1242م) وجيان (1246م)، و اشبيلية (1248م).

---

[7] هو الشاعر الإشبيلي: أبو إسحاق إبراهيم ابن الدباغ.

[8] المقري: نفح الطيب. ج2: ص:582.

وبنظرة بسيطة يظهر للدارس سقوط جلّ ولايات الأندلس الوسطى و الشرقية منذ منتصف ق 13م، وتحوّلت الأندلس كلّها إلى الجنوب الذي أصبح ملاذ المسلمين المغلوبين على أمرهم إذ أصبحوا ينظرون إلى ما يأتيهم من نجدة من تلك المملكة الجديدة، أمل المسلمين جميعا، غرناطة المدينة التي كتب لها القدر أن تحمل لواء الدفاع عن الإسلام و المسلمين أكثر من قرنين من الزمن.

فغرناطة بني نصر أوبني الأحمر [9] أصبحت مملكة لبني نصر القبيلة العربية [10] بدخول محمد بن يوسف بن نصر إليها في أفريل 1238م. [11] ومنذ هذا التاريخ اجتمعت كلمة المسلمين من جديد على بني نصر، وأصبحت قوى المسلمين الأندلسيين في يد بني الأحمر بغرناطة وصارت إسبانيا النصرانية تنظر إليها بعين الحذر، وحاولت أن تقضي عليها قبل أن تشتد قوتها[12] وقد أدرك

---

9 نسبة إلى محمد بن يوسف بن نصر (المعروف بابن الأحمر) سليل بني نصر، والذي يعود أصلهم إلى سعد بن عبادة (رضي الله عنه) سيد الخزرج في المدينة.

10 لسان الدين ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة. تحقيق عبد الله عنان القاهرة 1976م/ ج01. ص: 39، -وكذلك المقري: أزهار الرياض. ج:1.ص:167

11 : عنان: نهاية الأندلس و تاريخ العرب المتنصرين.ط2: القاهرة 1958م. ص:29.

12 : لسان الدين ابن الخطيب: اللمحة البدرية في تاريخ الدولة المصرية / القاهرة. ص: 36

بنو الأحمر الخطر المحدق بهم. لذلك راحوا يصانعون النصارى الأسبان على مضض للحفاظ على مملكتهم الناشئة التي ستسمح لهم عند اشتداد شوكتها من ردّ الاعتبار للمسلمين في الأندلس، و لم تكن هذه المصانعة من باب التخاذل أو التنازل مثلما فعل بعض ملوك الطوائف من قبل، بل كانت إستراتيجية خاصة اتبعها بنو الأحمر في نظرنا مرحليا ليتمكّنوا من جمع قواهم لمقارعة النصارى حين تسمح الفرصة بذلك [13].

غير أن تطور الأحداث في مملكة غرناطة بعد مؤسّسها الأول. أدّت إلى بداية تضعضع كيان المملكة. فإذا استثنينا الاستقرار الذي شهدته في عصر الفقيه [14]. ثم مرحلة القوة و تجدّد الجهاد في عهد السلطان أبو الوليد إسماعيل الذي استلم الحكم عام 1314م، فإنّ باقي الحكام لم يكونوا في مستوى سابقيهم، فوفاة السلطان إسماعيل سنة 1325 م ستدخل غرناطة مرحلة حرجة من تاريخها، إذ يبدأ الصراع داخل البيت الحاكم، هذا الصراع الذي

---

[13] عنان : نهاية الأندلس : ص 34.

[14] هو أبو عبد اللّه محمد بن يوسف. (ابن مؤسس مملكة غرناطة). و كان له فضل في ترتيب أمور الدولة النصرية.

عرف بالصراع النّاصري النّاصري (نسبة إلى الأسرة الحاكمة بــني نصر).

فخليفة السلطان إسماعيل كان ولده أبو عبد اللّه محمد و هو لم يتجاوز الحادية عشر من عمره [15] و بعد أن قتل مــن طــرف بعض الجنود المغاربة [16] آلت السلطة إلى أخيه أبي الحجّاج يوسف بن إسماعيل و هو أيضا فتى لم يتجاوز السادسة عشــر(1333 م)، وانتهى حكمه كذلك بمقتله عام 1354 م، و توالى مقتل الحكــام والسلاطين بعد ذلك لتدخل غرناطة مرحلة اللااستقرار و بداية العدّ التنازلي لقوة بني الأحمر، و لآخر قلعة من قلاع الأندلس [17]. رغم محاولات بعض السلاطين مثل الغني باللّه محمد بن يوسف الحفــاظ على قوة غرناطة، و الاستعانة بالمثقفين و العلماء في تسيير شــؤون دولته من أمثال ابن الخطيب [18].وابن زمرك[19].

---

15 عنان : نفسه . ص 93.

16 ابن خلدون : كتاب العبر و ديوان المبتــدأ و الخــبر – بــيروت 1981 .ج.7. ص 374.

17 ابن الخطيب : اللمحة البدرية : ص 97.

18 لسان الدين ابن الخطيب. استوزره الغنيّ باللّه مرتين، قبل أن يهاجر إلى المغرب بعد أن كثر الكلام حول سلطته و نفوذه، و قتل بالمغرب 1375 م.

19 هو عبد اللّه ابن زمرك، الشاعر والكاتب الأندلسي.

إنّ بداية تضعضع كيان غرناطة واشتداد الصراع النّاصـــري النّاصري، يظهر جليا مع النصف الثاني من القرن الخــامس عشـــر الميلادي، و يبدأ بوصول أبي الحسين علي بن سعد بـــن إسماعيـــل والمعروف باسم مولاي الحسن سنة 1464م إلى ســدّة الحكـــم في غرناطة، هذا السلطان كان له دور كبير في تأجيج الصراع داخـــل البيت الناصري، و ذلك لاستهتاره، و ركونه إلى الملذات، و رفضه الجهاد في وقت ازداد فيه تكالب النصارى على غرناطة، و اشتدت هجمات ملك قشتالة انريكي الرابع، الذي تمكن من الاستيلاء على مضيق جبل طارق ليقطع آخر خيط يربط الأندلس بالمغرب [20].

إنّ الحديث عن أبي الحسن لا يمكن دون الحديث عـــن دور المرأة الأجنبية في سقوط الدول، فمولاي الحسن تزوّج و هو في سنّ متقدمة من فتاة إسبانية نصرانية أسلمت ظاهرا و سميت ثريا وأنجب منها ولدين هما سعد و نصر[21]، و كان للسلطان قبلـــها ولـــدان (محمد و يوسف) من ابنة عمّه السيدّة عائشة (الحرّة) وبفعلـــه هذا فتح الباب على مصراعيه لصراع السيّدات، لأنّ كل واحدة من نسائه تريد أن تظفر بالسلطة لولدهن

---

[20] المقري: نفح الطيب . جـــ : 4 ، ص 512 .

[21] محمود مكي : تاريخ الأندلس السياسي، الثقافي، الاجتماعي: ص 134.

و استطاعت ثريّا الإسبانية [22]. أن تسيطر على السلطان وأصبحت سيدة القصر الأولى [23] و تمكنت من السيدة عائشة بإقناع الزوج بسجنها رفقة ولديها محمد (أبي عبد اللّه الصغير) ويوسف (أبي الحجاج يوسف) بسجن قمارش. لكن السيدة الحرة (عائشة) لم تستسلم للمكيدة و تمكنت من الفرار من السجن والاستقرار بوادي آش ضواحي غرناطة [24] أين بايع الكثير ابنها محمد (أبي عبد اللّه الصغير)، و هكذا انقسم عرش غرناطة بين الوالد أبي الحسن. وابنه عبد اللّه الصغير الذي وقع أسيراً لدى الإسبان بعد موقعة اللسانة (1483 م) ،ممّا جعل العامة يضطرون إلى مبايعة الوالد من جديد، و الذي تنازل بدوره عن الحكم لأخيه محمد أبي عبد اللّه الزغل المعروف بضعف شخصيته و عزمه[25]

---

[22] اسمها الأصلي هو : ايزابيلا دي صولي. كانت جارية عند السلطان أبي الحسن.

[23] بعد سقوط غرناطة أخذا اسمين نصرانيين، فسعد أصبح (دون فرناندو) و نصر أصبح (دون خوان).

[24] ايرفنغ واشنطن – سقوط غرناطة، تعريب الدكتور إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1988م. ص 62.

[25] ظاهرة معروفة في الأندلس في عصر الطوائف (سيطرة النساء النصرانيات على الأمراء).

وقلّة حزمه و خبرته هذه الخصال دفعت ملك قشتالة إلى إطـــلاق سراح أبي عبد اللّه الصغير ليدخل في صراع مع عمّه الزغل في وقت يشتغل فيه خصومه بالاستيلاء على الحصون و القلاع المتبقية حول غرناطة في عملية زحف شاملة على آخر معقل من معاقل الأندلس.

و بذلك تحول صراع السيدات إلى صراع بين العم و ابـــن أخيه ضمن دائرة الصراع الناصريّ الناصريّ، في مقابل الصـــراع الناصريّ النصراني. و قبل تتبع السنوات الأخيرة لغرناطة نلقي نظرة على الخصم العنيد.

الطرف النصراني و الوحدة السياسية الجديدة.

ففي خضم الفتنة التي عصفت بالبيت الناصري، نجد العدو أوفر حظاً و أكثر قوة باتحاد قشتالة و أراغون سنة (1479م). بعد أن تم الزواج بين ايزابيلا [26] ملكة قشتالة مع فرناندو الخامس [27]

---

[26] ايزابيلا الكاثوليكية. ولدت عام 1451- ابنة خوان الثاني ملك قشتالة. وحفيـــدة انريكي. 3 تزوجت دون فرناندو أمير آراغون. عام 1469م.وعندما تـــوفي أخوهـــا انريكي 4، عام 1474 استلمت العرش مكانه، وبعد الوحدة مع آراغون أصـــبحت وزوجها يعرفان. بملكي قشتالة وآراغون. أو الملكين الكاثوليكيين.

[27] فرناندو الكاثوليكي. ولد في آراغون عام 1452م. ابن خوان الأول ملك آراغون، ملك فرناندو آراغون عام 1479م- بعد زواجه من ايزابيلا بـــ10 سنوات، وصـــارا ملكين لآراغون و قشتالة، وقادا الحرب ضد المسلمين الغرناطيين حتى سقوطها عـــام 1492م

ملك آراغون بحوالي 10 سنوات، فاجتمعت القوة النصرانية حـــين تفرقت قوة المسلمين الغرناطيين، وانتهت الحرب الأهلية والفتنة في إسبانيا المسيحية الموحّدة، لتشتعل في غرناطة المسلمة، فكان من بين ما تعاهد عليه الملكان الكاثـــوليكيان (فرناندو وإيـــزابيلا) هـــو الحرب على غرناطة [28] خاصة من جانب إيزابيلا التي وقعت تحت تأثير الأحْبار المتعصبين نظرا لحميتها الدينية، وســـنرى في الفصـــل الثاني من هذه الدراسة العلاقة الحميمة بـــين ايـــزابيلا والرهبـــان واتفاقهما على تنصير المسلمين المتبقين في الأندلس بعـــد ســـقوط غرناطة رغم تعهد الملكين الكاثوليكيين بـــاحترام تعـــاليم الـــدين الإسلامي والسماح للمسلمين بالبقاء على عـــاداتهم وتقاليـــدهم الإسلامية.

وهكذا اجتمعت سياسة الغدر والميكيافيلية لدى فرناندو مع النزعة الدينية المتعصبة لإيزابيلا ضد غرناطة الصامدة الـــتي تنـــازع أهلها ففشلوا وذهبت ريحهم كما ذكر القرآن الكريم.

ومع الأيام الأخيرة لغرناطة والصراع المرير من أجل البقـــاء في أرض آلفها الآباء و الأجداد

---

[28] المقري : نفح الطيب : ج 4 . ص 514.

نشير باختصار إلى التفكّك الذي أصاب دولة بـني مـرين بالمغرب الذي ظل يمثل حبل النجدة بالنسبة للأندلسيين قبل وبعـد سقوط غرناطة.فمنذ عهد السلطان المـريني أبي الحسـن المتـوف سنة 1351م. بدأت دولة بني مرين في الانحدار نحو الحرب الأهلية.[29] وانشغلت بالفتن الداخلية، إلى غاية أيامها الأخيرة علـى يـد السلطان عبد الحق الذي خلف أباه أبا سعيد المريني عـام 1514م، وفي عهده ظهرت سيطرة أسرة بني وطاس على دواليب الحكم ممثلة في الوزير يحي بن يحي الوطاسي [30]. ورغم القضاء على الوزير يحي وأخويه من طرف السلطان على شاكلة ما وقع للبرامكة مع هارون الرشيد، إلا أن شوكة بني وطاس قويت وتمكن الوطاسـيون مـن وضع حد للمرينيين ليحكموا المغرب باستيلاء زعيم بـني وطـاس محمد الشيخ على فاس سنة 1471م.

هذا التغيير في نظام الحكم بالمغرب بحلول دولة أقل قوة من دولة بني مرين جعل المسلمين الأندلسيين يبحثون عن مصدر جديد للإمداد، لذلك نراهم يتوجهون في طلب النجدة من سلطان مصر

---

[29] عنان : نهاية الأندلس : ص 206

[30] بنو وطاس: من أعقاب يوسف بن تاشفين، كانت بلاد الريف لهم. انظـر ابـن خلدون، العبر: ج 13. ص: 450.

المملوكية، الظاهر جقمق في بادئ الأمر ثم الاتجـــاه نحـــو الدولـــة العثمانية القوة الجديدة في البحر الأبيض المتوسط [31].

ولنعد إلى الصراع الأخير وسقوط غرناطة في يد الملكـــين الكاثوليكيين، فبعد فقدان غرناطة لمظاهر قوتها، أســـرة حاكمـــة تتنازعها الأهواء، قلاع وحصون دفاعية سقطت في يد النصـــارى حليف بالعدوة المغربية يموج في فتن وصراعات داخلية، لم يبق أمام المملكة الصامدة سوى أن تعدّ أيامها خاصة بعد أن وقّـــع الزغـــل معاهدة صلح مع الإسبان مقابل امتيازات معيّنة له ولأسرته. ومبالغ مالية [32] وسافر إلى المغرب، لكنه أستقبل بالتنديـــد والاســـتنكار وجرد من ماله، ثم انتقل إلى وهران ومنها إلى تلمسان أين بقي يجرّ أذيال الخيبة، والحسرة والندم حتى وفاته [33]، ومنذ خريف 1489م أضحت غرناطة كالمصباح المرتجف تنطفئ أضواؤه تباعا إذ استولى فرناندو قبل نهاية السنة على ثغر المنكب (بين المرية ومالقة) و بعد أسابيع حاصر المرية، وسلّمت للنصـــارى في فـــبرا يـــر 1490م ثم

---

[31] ويظهر الاستنجاد بالدولة العثمانية خاصة بعـــد ســـقوط غرناطـــة. إذ أرســـل الموريسكيون نداءين للاستغاثة أولهما للسلطان بايزيد الثاني سنة 1501م. و الثاني إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541م (أنظر الملاحق).

[32] عنان: نهاية الأندلس. ص: 142.

[33] نفسه، ص: 102

استولى على بسطة بعد حصار مرير، ولم يبق أمام فرناندو إلا غرناطة آخر حبّة في عقد الأندلس.

سار فرناندو نحو غرناطة مع مطلع 1491م بجيش قوامه بين 50 إلى 80 ألف من الفرسان والمشاة. [34] وحاصرها حصارا صارما، عازما على فتحها أو استسلامها، وقد أظهر سكان غرناطة شجاعة فائقة في الدّفاع عن مدينتهم، وضربوا مثلا رائعا في الجهاد والتضحية، في غياب المؤونة بعد توافد المسلمين من ضواحي غرناطة واشتداد الحصار.

لقد كانت سبعة أشهر من الحصار كافية لأن تدفع سكان غرناطة و أعيانها إلى القبول بالمفاوضات مع الملكين الكاثوليكيين [35]. واختاروا لذلك ممثلا عنهم [36] كما اختار فرناندو كاتبه فرناندو دي زفيرا [37] والقائد جونز الفو دي كوردوبا لمعرفته للغة العربية وشؤون المسلمين في غرناطة، و دارت

---

[34] الذنون: آفاق غرناطة، دمشق 1980، ص: 50.
Prescott :Hist.of.Ferdinand. and Isabilla. London 1855.P285

[35] عنان: نهاية الأندلس.
PRESCOTT : HIST.OF.FERDINAND. P : 290.

[36] كلف الوزير أبو القاسم عبد الملك للقيام بدور المفاوض في أكتوبر 1491م

[37] وتوجد معاهدة غرناطة ضمن ملفاته التي تركها باعتباره كاتب خاص للملكين

المفاوضات في سرية تامّة [38] و بعد مفاوضات شاقّة توصّل الطرفان إلى صياغة معاهدة التسليم النهائية في نوفمبر 1491م الموافق لـ محرم 897هـ [39] التي تضمّنت حقوق المسلمين في غرناطة، (أنظر الملاحق). إن هذه المعاهدة التي عرفت فيما بعد باتفاقية غرناطة سمحت للملكين بدخول قصر الحمراء في جو هيج بداية شهر جانفي من عام 1492م، وخرج منها أبو عبد الله الصغير صاغرا هذه المرّة، وأمه السيدة عائشة الحرة تمسح دموعه قائلة:

أبك مثل النساء ملكا مضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال

وسلّم أبو عبد الله للملك الكاثوليكي مفاتيح المدينة قائلا: "انّهما مفتاحي [40] هذه الجنة، وهما الأثر الأخير لدولة المسلمين في أسبانيا، وقد أصبحت أيها الملك سيد تراثنا و ديارنا وأشخاصنا وهكذا قضى الله فكن في ظفرك رحيما وعادلا". [41] فردّ عليه

[38] عنان: نهاية الأندلس. ص: 185

[39] وهو التاريخ الرسمي لسقوط غرناطة في يد النصارى: غير أنه دخول الملكين إلى المدينة كان في 02 جانفي 1492م، ولذا نرى الكثير من المؤرخين يخلطون بين التاريخين.

[40] المقصود مفتاحي البابين الرئيسيين لقصر الحمراء

[41] الذنون: آفاق غرناطة. ص: 70

فرديناند: لا تشكّ في وعودنا، و لا تعوزك الثقة خلال المحنة فسوف تعوّض لك صداقتنا ما سلبه القدر منك [42].

ورفع العلم الأسباني، ونكّس العلم الغرناطي من على أبراج الحمراء فخفق علم النصرانية فوق صرح الإسلام المغلوب [43] وبدأ فصل جديد من المعاناة ونكث العهود، وخرق بنود اتفاقية غرناطة، منذ السنوات الأولى للاستيلاء على المدينة التي غادرها أبو عبد الله الصغير إلى البشرات في موكب حزين لم يسبق له مثيل وصار المسلمون في غرناطة يسمّون بالموريسكيين[44]. وهي كلمة إسبانية MORISCOS. ومعناها صغار المسلمين للحطّ من شأنهم. وبذلك تبدأ مأساة جديدة للطائفة المسلمة الباقية في غرناطة كما سنرى في الفصول القادمة.

---

[42] عنان: نهاية الأندلس.ص: 191.

[43] الذنون: آفاق غرناطة. ص71.

[43] أصبح مصطلح الموريسكوس أو الموريسكيين شائعًا لدى المؤرخين إلى اليوم.

2.1- بداية المحنة :

لم يكن سقوط غرناطة في يد إسبانيا مجرد نهاية حكم و قيام آخر، و لا مجرّد تغيير في النظام السياسي، بل مثّل سـحقا لدولـة الإسلام في الأندلـس [45] فبعد أن فقـد المسلمون سيادتهـم وأملاكهم، و شربوا كأس الذلّ السياسي حتّى الثمالة، و طعنوا في كرامتهم و فقدوا تسميتهم [46] التي عرفوا بها منذ وصول طـارق بن زياد إلى الأندلس، و لم تفارقهم خلال 08 قرون من التواجـد الإسلامي في إسبانيا، و أصبحوا يسمون بالموريسكيين .

فما معنى هذه التسمية التي ألصقت بمسلمي الأندلس بعـد سقوط غرناطة رغما عنهم ؟و ظلّت متداولة حتى طردهم نهائيا من إسبانيا سنة 1609 م، و صارت مصطلحا عنـد جـلّ المـؤرخين المهتمين بتاريخ المسلمين الأندلسيين بعد سقوط غرناطة ؟

فالموريسـكيون أو الموريسـكوس، مصـطلح إسـباني "Moriscos"، وقد اختلف المؤرّخون في تحديد معنى المصطلـح

---

[45] عنان : نهاية الأندلس . ص : 224 .

[46] المقصود بالتسمية : المسلمين ، لأنه منذ فتح الأندلس و سكانها يسمّون بمسـلمي الأندلس إلى غاية سقوط غرناطة سنة 1492 م .

واشتقاقاته و تعدّدت المفاهيم و إن اتفق الجميع على المعنى العـــام للكلمة .

فالكثير من المؤرخين [47] " يرى أن أصل الكلمة لاتـــيني إغريقي مشتق من كلمة موري Mauri ، و تطلق علـــى مجموعـــة ذات بشرة سوداء ، و أصل الكلمة مشتق من الكلمة الإغريقيـــة Amaurus [48] ، و منها اشتقت كلمة مورو " Moro " ويقصد به شديد السمرة ".

أمّا ليفي بروفنسال [49] " فيرى بأن الموريسكيين Morisco كلمة إسبانية تطلق على المسلمين الذين بقوا في الـــبلاد بعـــد أن استولى عليها الملكان الكاثوليكيان ".و في معجم الأكاديمية الملكية الإسبانية نجد تعريف الموريسكي " كلمة تطلق على المغاربيين الذين بقوا و تعمّدوا بعد استعادة إسبانيا " . [50]

[47] حمادي عبد الله: الموريسكيون و محاكم التفتـــيش في الأنـــدلس (1492،1616)، الجزائر 1989. ص50.

[48] آموروس : باللغة اللاتينية القديمة و معناها داكن البشرة .

[49] Lévi Provensel : Ensyclopedia of Islam .1er edition

[50] و في هذا إشارة واضحة إلى أنّهم تمسّحوا رغما عنهم .

و يذهب الدكتور حسين مؤنس [51] بعيدا في تحديد أصل الكلمة إذ يعود بها إلى العهد الروماني ، **فمورو** ، مشتقة من ماوري Mauri و تعني الداخلين تحت سلطان مسيحي، ومنـــها جـــاءت موريطانيا [52] Mauretania ، وتطورت كلمة موري إلى مــورو الإسبانية وأصبحت تعني عربي أو مسلم ، ومعلّل ذلـــك بإضــافة كلـــمــة " Vasallos " لمورو " Vasallos Moros " ومعناهـــا العرب التّابعون " .

و مهما يكن فإنّ الموريسكيين مصطلح خـــاص بمســـلمي الأندلس بعد 1492 م، وكلمة Moro الإسبانية والتي تقابلها الكلمة الإنكليزية Moorish لم نجد لها استعمالا قبل تاريخ 1492 م سواء في إسبانيا أو خارجها .

أمّا من حيث المعنى فإنّ الإجماع يكاد يكون عامّـــا لـــدى المؤرخين المهتمين بتاريخ مسلمي الأندلس بعد السقوط، و لا نجد مؤرخا واحدا يعطي للمصطلح معنى مغايرًا للمعنى العام المقصود به

---

[51] حسين مؤنس : مقال حول فتوى الونشريسي :"آسنى المتاجر فيمن غلب على دينه من النصارى و لم يهاجر " ، صحيفة بمعهد الدراسات الإسلامية ، مدريد 1957 – عدد 1 و 2 . ص : 139 .

[52] التسمية التي أطلقت على سكان شمال إفريقيا الداخلين تحت سلطة الرومان .

المسلمين الذين بقوا في إسبانيا بعد استيلاء الملكان الكاثوليكيان عليها ، أو الذين هاجروا أو هجّروا من إسبانيا بين 1492 م- 1610 م [53].

فالموريسكيون إذن تسمية أطلقت سنة 1499 م [54] على كل من هو عربي أو مسلم و استعملت رسميا في ملفات محاكم التفتيش عام 1520 م [55]، و أصبح مصطلحا إسلاميا شاع استعماله في اللغات الأوروبية بصيغ متقاربة و هو الآن مستعمل في اللغة العربية و أخضع لتصريفاتها [56] .

ويطلق على المسلمين الذين بقوا في الأندلس تحت السلطة النصرانية وواجهوا عبث محاكم التفتيش ، ومن المؤكد أن التسمية لم تستخدم عقب السقوط مباشرة بل بعد السنوات الأولى [57] .

---

53 1492 م تاريخ سقوط غرناطة و بداية التسمية الجديدة و 1610 م تاريخ الطرد النهائي للمسلمين (الموريسكيين) من الأندلس في عهد الملك فيليب 3 .

54 Ravaillard Martin : Morisque Bibliographie . Paris 1982 T2 . p : 06 .

55 Ibid : p : 07 .

56 الحجي عبد الرحمن علي : محاكم التفتيش الغاشمة و أساليبها، الكويت 1983 . ص : 14 .

57 ليوناردو هارفي : تاريخ الموريسكيين السياسي و الثقافي و الاجتماعي - مركز دراسات الوحدة العربية ط 1 : بيروت 1998 / ترجمة عبد الواحد لؤلؤة ص : 319

ومن خلال المعنى العام لكلمة الموريسكيين نرى أن هدف السلطات النصرانية الإسبانية من إطلاق هذه التسمية على المسلمين في غرناطة ثمّ باقي المقاطعات بعد سقوطها هو محاولة لاجتثاث شوكة المسلمين نهائيا من إسبانيا بتخصيص الأقلية الإسلامية دون غيرها بهذه التسمية، وإعفاء باقي الأقليات و الطوائف منها، مثل اليهود والبروتستانت ، فالهدف سياسي بالدرجة الأولى أكثر منه لغويّا، ودليلنا على ذلك اقتصار التسمية على الأقلية الإسلامية فقط، بشهادة قاموس التاريخ الإسباني Diccionaro de Historia de Espana الذي يحدّد معنى كلمة موريسكيين : بمسيحي إسبانيا المنصّرين بالقوة بداية من القرن 16م[58]

وضمن هذا المنظور يرجع الدكتور عنان [59] معنى الكلمة إلى المسلمين الأصاغر ، و ذلك كدليل على ما وصلت إليه الأمة الإسلامية من انحطاط . وربّما هذا ما دفع المؤرخ

---

58 Diccionario de Historia de Espana . Madrid . 1970 T 2 p: 1130

59 عنان : نهاية الأندلس . ص : 231 .

لابيير [60] إلى اعتبارهم مسلمين لكنهم ليسوا كالمسلمين فهم إذن طائفة إسلامية جديدة .

لكن السؤال الذي يطرح نفسه ، هل استعمل المسلمون الأندلسيون بعد السقوط مصطلح الموريسكيين أم سمّوا أنفسهم تسمية أخرى ؟.. والجواب أننا لا نجد من خلال التراث الموريسكي الموروث (انظر الفصل الأخير من هذه الدراسة) أو من خلال رسائلهم المنشورة في شكل استغاثة تسميتهم "بموريسكيين "، بل نجدهم قد سمّوا أنفسهم بالغرباء، و ذلك في نداء الاستغاثة الذي وجهوه إلى السلطان العثماني سليمان القانوني عام 1541 م، وحسب ابن منظور [61] فإن كلمة الغرباء " : تعني الأباعد، وتعني المنفيين، أو الذين يشعرون بغربة وسط محيط مغاير لهم .."

وفعلا فإن هذه التسمية التي اختارها الموريسكيون تحمل أكثر من دلالة تاريخية ودينية، فتاريخيا أصبح الموريسكيون غرباء، دينا وحضارة عن الوسط النصراني الذي يعيشون فيه، فهم من جهة

---

60 Lapeyre : Geographie de L'Espagne Morisque . Paris . 1959 . p : 120 .

61 – ابن منظور : لسان العرب /كلمة غرب / بيروت 1965

يحملون ديانة إسلامية راسخة في الصدور [62] ومن جهة ثانية فرضت عليهم عبادة نصرانية جديدة .

أمّا دينيا فهم تمّثلوا بحديث الرسول (ص) في جوابه عن سؤال من هم الغرباء ؟ فكان ردّه : " هم الذين يحيون ما أمات الناس من سنتي "، ونجد في حديث آخر قوله (ص) : " إنّ الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء " .

ومهما اختلفت التسمية و معانيها، فإن الموريسكيين هم تلك البقايا العنيدة المجسّدة لشخصية الحضارة العربية الإسلامية على الأرض الأندلسية، [63] فهم شعب عنيد العزم في الحفاظ على هويته و ثقافته [64] رغم مصاعب المرحلة وخطورتها، ولو حاولنا الآن تجّنب مصطلح الموريسكيين فإنّ الأمر ليس بالهيّن بعد أن ترسّخ المصطلح في الكتابات التاريخية والمعاجم والموسوعات

---

[62] – الصباغ ليلى : ثورة مسلمي غرناطة. مجلة الأصالة الجزائرية عدد: 27 /1975م. ص : 121 .

[63] ونفس التعبير استعمله مفتي وهران – أحمد بن جمعة – في ردّه على أسئلة الموريسكيين حيث يقول " فطوبي للغرباء الذين يصلحون إذا أفسد الناس ...) انظر نص الفتوى في الملاحق .

[64] الصباغ ليلى : نفسه . ص 125 .

المختلفة، وغدت كلمة الموريسكيين مستعملة في اللغة العربية وقواعدها [65]

غير أنّ حقيقة المشكلة ليست في التسمية في حدّ ذاتها وإنّما في المحنة التي عاشها هؤلاء " **الغرباء** " طيلة أكثر من قرن وفي المعاناة التي قابلها الغرناطيون باستماتة قلّما نجد لها نظيرا عند الأقليات المغلوبة على أمرها، لقد أدرك الموريسكيون منذ البداية أنّ الملكين لايفيان بوعودهما، و إنّ اتفاقية غرناطة لم تحترم، وإن العون والمدد الخارجي لا يرجى منه الكثير . فبالنسبة لوعود الملكين واتفاقية غرناطة، ما كانت لتصمد أمام الكنيسة [66] الكاثوليكية التي كانت تضطرم حماسة [67] لتحقيق أهدافها "تنصير المسلمين " ومنذ دخول الملكين إلى غرناطة وإحكام سيطرتهما على أمور المدينة، بدآ يتنصلان من وعودهما، وبدأت سياسة الانتقام تجتث من طريقها كلّ ما هو إسلامي، وتوالى خرق بنود المعاهدة الواحد تلو

---

[65] ليوناردو باتريك هارفي : تاريخ الموريكيين السياسي والإجتماعي والثقافي . ص : 317

[66] ما يلاحظ في هذه المرحلة أن السلطة السياسية أصبحت طيّعة في يد الكنيسة، تذعن لأوامرها دون تردد .

[67] عنان : نهاية الأندلس . ص : 227 .

الآخر، و أنشئت محاكم التفتيش [68] بدعوى حماية الدين المسيحي (الكاثوليكي) من المارقين (المسلمين) والكفّار، وإذا كانت هذه المحاكم أنشئت في الأصل في مختلف أنحاء أوروبا، لمطاردة الكفار و الخارجين عن المسيحية فإنّه أصبح مقتصرا على متابعة المسلمين في إسبانيا منذ سقوط غرناطة [69] .

إنّ فطنة الشعب الموريسكي ونباهته، وبراعته في فنون الري والزراعة و الصناعة والفنون [70] كانت كافية لتجعل السياسة الإسبانية تخشى منه، و تضع نصب أعينها القضاء عليه مدفوعة في ذلك بحمية دينية لو تخلّصت منها لأصبحت إسبانيا منارة لأوروبا الحديثة في مختلف الفنون والعلوم، لكن التعصب الأعمى حرم إسبانيا في ق 15 و16 م، من عناصر بشرية متمدنة كان بإمكانها دفع عجلة التنمية في إسبانيا قبل غيرها من الدول الأوربية الأخرى، لكن كل هذا لم يكن ليتم أمام نقض العهود وخيانة الوعود، ممّا

---

[68] و إن كان الدكتور عنان ، يرى تسميتها الحقيقية هي " ديوان التفتيش و ليس محاكم التفتيش " لكن المؤرخين يستخدمون مصطلح المحاكم .

[69] أنشئت محاكم التفتيش في إسبانيا أول مرة في أراغون (1242) و في 1478 م تحصل الملكان الكاثوليكيان بأمر من البابا لإنشاء محاكم التفتيش، وكانت الأولى في إشبيلية، وتوسعت لباقي المدن واختصت بمتابعة الموريسكين .

[70] Dr .Lea : The Morish of spain . london 1901. p : 07 .

جعل الموريسكيين يهاجرون كتدفق السيل نحو بلاد المغرب و هـــو أكبر دليل على أن الموريسكيين لم يكونوا واثقين في ولاء حكامهم الجدد [71]، وأمام هذا الوضع الجديد وجد الموريسكيون أنفســـهم أمام خيارات ثلاثة [72]:

- الأول : اعتناق المسيحية بصدق .
- الثاني : رفض التنصر وقبول نتائج ذلك الرفض .
- الثالث : قبول التنصّر ظاهريا والمحافظة على دينهم سرا .

وبالنظر إلى الوضعية التي أصبح عليها الموريسكيون كـــان الخيار الثالث هو الأنجح، لكن ذلك لم يكن بـــالأمر الســـهل، لأنّ حالة الأقلية الموريسكية لم يشهد لها تاريخ الـــدويلات الإســـلامية مثيلا، وإن كان الإسلام دين اليسر قد فتح باب التسامح واسعا في مجال العبادات، مثل صلاة الخوف... وغيرها . لكن كيفية محافظة طائفة بكاملها على دينها وسط مجتمع معاد فتلك مسألة أخرى .

فالمسألة التي وقع فيها هؤلاء هي رأي الشرع في حالة كهذه لذا لجأ الموريسكيون إلى فتاوى الفقهاء لإيجـــاد الحـــل الشـــرعي

---

[71] Ibid : p : 23

[72] ليوناردو هارفي : تاريخ الموريسكيين . ص : 326 .

لنازلتهم [73] . وكان أمامهم فتوى للونشريسي كتبها حين بدأت مدن الأندلس تسقط في يد النصارى وهي بعنوان : " أسنى المتاجر فيمن غلب على دينه من النصارى و لم يهـــاجر " [74] وفي هـــذه الفتوى يردّ الونشريسي على سكان هذه المدن التي سقطت في يـــد النصارى حول بقائهم في هذه الديار أو الهجـــرة، وقـــد أجـــاز الونشريسي بل أوجب هجرة هذه الديار لأنها أصبحت دار كفـــر وجب تركها، والفتوى بشكلها هذا لا تناسب وضعية الموريسكيين بعد سقوط غرناطة .

لذلك أرسلوا يسألون جواب أحد مفتيي وهران وهو أحمد بن بوجمعة الوهراني [75]، الذي أرسل بفتوى شهيرة باسمـــه ســـنة 1504 م فيها أجوبة شافية لتساؤلات الموريسكيين وقد حملت هذه

---

[73] النازلة : و هي مصيبة أو أمر طارئ يحتاج إلى حل شرعي، أي رأي الفقهاء.

[74] أنظر الفتوى : في : المعيار المغرب في فتاوي أهل إفريقية و المغرب، دار الغرب الإسلامي/بيروت/تحقيق مجموعة من العلماء / ج 2 / ص : 75

وكذلك حسين مؤنس ، مقال حول نفس الفتوى – مجلة الدراسات الإسلامية بمدريد، عدد 1 و 2 . مدريد 1957 .

[75] لا نعرف سبب إختيار الموريسكيين لهذا المفتي دون غيره ، رغم قـــرب المغـــرب منهم، لكننا نرى أن سهولة الوصول إلى وهران بحرا، أو وزن هذا المفتي في الجزائر هو الدافع إلى ذلك .

الفتوى [76] تسهيلات مهمّة وواسعة تسمح للموريسكيين بالمحافظة على دينهم بإتباع أسلوب التقية ومن أهم ما جاء في هذه الفتـــوى التي سننشرها كاملة في الملاحق :

- يمكن آن يقولوا محمد إذا طلب منهم شـــتم الـــنبي محمـــد ص ويقصدون بذلك مهمادا اليهودي ، و هو لقب الكثير من اليهود

- إ ذا تعذر عليهم الصلاة في النهار ، فيؤدّونها في الليل .

- إذا أجبروا على شرب الخمر ، فيشربوا مع اعتبار ذلـــك أمـــرا فاحشا (أي دون نيـــّة) .

- يمكن استخدام إشارات بدل الجهر في الصلاة .

- يمكن تعاطي الربا ، شرط أن تُنفق الفائدة على الفقراء .

- إذا طلب منهم أن ينكروا إتباعهم الإسلام، فيقولوا ذلك ظاهرا، وينكروه في قلوبهم .

وبهذه الجملة من الحيل و الموارَبات نشأ الإسلام السري في إسبانيا وأصبح الموريسكيون يمارسون طقوسهم الإسلامية وفق ما اقترحـــه

---

[76] الفتوى موجودة باللغة العربية لها ترجمات، فالنسخة العربية عثر عليها الدكتور عنان في مكتبة الفاتيكان بروما ونشرها في كتابه -نهاية الأندلس - أما النسخة الألخمايدية فعثر عليها كانتينو Cantineau بمكتبة ميجان Mejanes بـــأكس أن بروفـــانس، ونشرها في المجلة الأسيوية Journal Asiatique / الصادرة في باريس عـــام 1927 / جانفي مارس، ص 01 - 17 . كا توجد ترجمة قشتالية للفتوى في كتاب لونقـــاس : الحياة الدينية للموريسكيين LONGAS ; Vidas Velegiosa de Los Moriscos .

عليهم مفتي وهران ، الذي غدت فتواه مرجعية للأجيال المتعاقبة إلى غاية طرد المسلمين نهائيا من الأندلس عام 1610 م بعد صدور قرار الطرد سنة واحدة في عهد الملك فيليب III.

3.1– التقية تاريخ و معنى :

أ– لغة:

وهي المداراة والكتمان والتظاهر بما ليس هو الحقيقة وهي أشبه بنظام سرّي إذن، وحسب الموسوعة العربية الميسرة فهي:

لغة: المداراة والكتمان، **واصطلاحا**: نظام سرّي لحماية دعوة إمام من أئمة الشيعة، يقوم بالتظاهر بما لا يبطن ليقّر الشيعي ما يستنكر ويسكت على ما يخالف الدين [77].

وتعني الاحتياط والكتمان، والحذر والسرّية [78] فهي إذن الفعل الذي بواسطته يمتنع المسلم الذي يعيش وسط بيئة اجتماعية عدائية عن ممارسة دينه متظاهرا باعتناق الدين الذي فرض عليه فرضا.

وقد ارتبطت التقية بالشيعة دائما لأنها أكثر الفرق الإسلامية ممارسة لها.وتعتبرها من مبادئها الأساسية.فقد أورد الشيخ محمد رضا المظفر – التقية هي شعار آل البيت دفعا للضرر عنهم وعن

---

[77] الموسوعة العربية الميسرة : لشفيق غربال : ط 1965 / مجلد 1 / ص 540 / ت .

[78] Cardaillac : Morisque et Chretiens : Un Affrontemenet Polémique / Paris 1977 / p : 90 .

أتباعهم وحقنا لدمائهم- [79] ويحددون لها أحكاما مـــن حيـــث الوجوب وذلك حسبما تقتضيه مواقع الضّـــرر والخـــوف وقد لجأ إليها الشيعة أيام المحنة زمن العباسيين،و خلاصتها أن تقول أو تفعل غير ما تعتقد لتدفع الضّرر عن نفسك أو مالك كما لو كنت بـــين قوم لا يدينون بما تدين وقد بلغوا الغاية في التعصب [80].

وخالصة القول أن التقية هي التستّر والكتمان والاحتيـــاط وهي أشبه بنظام سرّي، وإن كان البعض يرى فيه صياغة ثانية لمبدأ: الغاية تبرّر الوسيلة.

ب-شرعا:

والتقية من الجانب الشرعي، فقد وجدت آيات قرآنية وأحاديـــث نبوية و آراء فقهاء مسلمين تشير إليها في الظروف الخاصة.

وقد سهلت الآيات القرآنية للفقهاء إصدار فتـــاوى تبـــيح جواز التقية-كما نستعرض ذلك- وربما كـــان لســـماحة الـــدين الإسلامي باعتباره دين يسر لا دين عسر، دور أساسي للأخذ بهذه الآيات .

---

79 المظفر محمد رضا : من عقائد الإمامية . ط 1968 . النجف . ص : 84 .

80 مغنية محمد جواد : الشيعة و التشيع . القاهرة 1973 . ص : 48 .

فقد جاء في القرآن الكريم إشارة إلى التقيـــة في ســـورة آل عمران: الآية (28) النحل:الآية (106) وغافر:الآية (28).

ففي المرّة الأولى جاء قوله عزّ وجلّ :" لا يتّخذ المؤمنـــون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء، إلاّ أن تتقوا منهم تقـــاة، ويحـــذركم الله نفســـه وإلى الله المصير"[81]. وتفسير هذه الآية: إلا أن تخافوا منهم مخافة فتظهـــروا لهم الولاية، وتضمروا لهم العداوة بقلوبكم [82]، فالمقصود من: إلاّ أن تتقوا منهم تقاة أي إلا من خاف في بعض البلدان والأوقات من شرّهم، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه و نيتّه [83].

وفي الآية الثانية قال تعالى:" من كفر بالله من بعد إيمانه إلاّ من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بـــالكفر صـــدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم "[84] ورد ذكـــره عـــز وجل:"إلاّ من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان" فهو استثناء من المولى عز وجل ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرها، لما ناله مـــن

---

[81] سورة آل عمران : الآية 28 .

[82] الصابوني محمد علي : مختصر تفسير الطبري . مجلد 1 ، طبعة 1958 بيروت .

[83] إبن كثير : تفسير إبن كثير / طبعة الجزائر 1990 . ج 2 . ص : 18 .

[84] سورة النحل : الأية 106 .

ضرب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول، ونزلت في عمّار بن ياسر.[85]

من خلال هذه الآيات يظهر لنا -حسب التفاسير- جواز التقية في أوقات و بلدان معروفة. و لعل الظرف الزماني والمكاني للموريسكيين بعد 1492م كان مناسبا، بل ضروريا لانتهاج أسلوب التقية.

وفي السنّة النبوية الكريمة أيضا نقل الرواة أحاديث عديدة حول التقية، فروى الديلمي عن الرسول (ص): "إن الله أمرني بمداراة الناس كما أمرني بإقامة الفرائض" وفي رواية أخرى "بعثت بالمداراة"، وروى البيهقي:"رأس العقل المداراة"، وأخرج الطبراني " مداراة الناس صدقة " وله أيضا "ما وقى المسلم به عرضه فهو صدقة".

وقصّة مسيلمة الكذاب مع رجلين مسلمين معروفة أيضا ومفادها حسب ما رواه الحسن: أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من أصحاب رسول الله (ص) فقال لأحدهما: أتشهد أن محمدا رسول الله. قال:نعم. فقال: أتشهد أني رسول الله؟. قال: نعم، ثمّ دعا الآخر فقال له: أتشهد أن محمدا رسول الله؟. قال: نعم. قال: أتشهد أني رسول الله؟. قال إني أصم، قالها ثلاثا، وفي كل مرة كان

---

[85] ابن كثير : نفسه . ج 4 . ص : 50 .

يجيبه: إني أصم، فضرب عنقه، فبلغ ذلك رسول الله (ص) فقال:"أما هذا المقتول فقد مضى على صدقه ويقينه، وأخذ بفضله فهنيئا له، وأما الآخر فقد رحمه الله فلا تبعة عليه". وهكذا يتّضح أنّ الرجل الذي تظاهر أمام مسيلمة الكذاب بأنه يؤمن به رسولا لا يعاقب لخوفه على نفسه.

أمّا البخاري فقد روى عن أبي الدرداء:"إنا نكشر في وجوه أقوام و قلوبنا تلعنهم، وروى أيضا عن الحسن:"التقية إلى يوم القيامة"، أما الثوري فنقل عن ابن عباس:"ليس التقية بالعمل، وإنما التقية باللسان".

وأخرج ابن عساكر وابن عدى:"من عاش مداريا مات شهيدا، قوا بأموالكم أعراضكم، وليصانع أحدكم بلسانه عن دينه".

وهذه جملة من الأحاديث كلها حول التقية، غير أن الذي ينبغي الإشارة إليه أنه لا يمكن ممارسة التقية لمس الدين بسوء و لا يسمح أيضا بارتكاب المعاصي باسم التقية. وانطلاقا من هذه الآيات والأحاديث فقد صدرت فتاوى عن بعض الفقهاء سواء بأرض الأندلس أو من فقهاء مغاربة بطلب من الموريسكيين مثل: أحمد بن جمعة المغراوي الوهراني سنة 1504م. (المذكورة في الباب السابق)

ب - ممـــارســـة:

إنّ التقية أو إخفاء المعتقد خوفا من خطر أو ضـــرر عرفـــه المسلمون منذ البذرة الأولى لهذا الدين لأن طبيعته في محاربة قـــوى الشر جعلته يصطدم بأعداء من الجن والإنس على حد تعبير القرآن الكريم.

وكانت المرحلة الأولى لبداية الدعوة الإسلامية بداية السرية في العمل، وإن الجماعات الإسلامية كانت تلجأ إلى التقية كلّمـــا حلّت بها المصائب [86]. فمحمد عليه الصلاة و السلام و جماعـــة المسلمين الأولين كانوا يلتقون سرا في شعاب مكة يتدارسون كتاب الله خوفا من أعين قادة الكفر من أمثال عتبة وأبي لهب، لأن هـــذه المرحلة امتازت بعدم تكافؤ القوى بين قريش وأصحاب محمد بـــن عبد الله (ص)، مما دفعهم إلى الاحتياط والكتمان والتســـتر علـــى عقيدتهم. و لم ينتقل الرسول (ص) وأصحابه إلى مرحلة العلنيـــة إلا بعد أن تقوّت شوكتهم و زاد عددهم.

ثمّ كانت مراحل الخلافة الإسلامية الراشدة، وتوالت مظاهر التستّر من طرف جماعات مختلفة منها ما كان معارضـــا للســـلطة

---

86 - Claude Cohen : El Islam des Origines Hasta El Comienzo Del Imperio Otomano . Madrid 1972 . p : 205 .

القائمة كالسبئيين وأتباعهم، فابن سبأ الذي أسلم تظـاهرا زمـن سيدنا عثمان رضى الله عنه كان يتظاهر بالإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويخفي بداخله حقدا على الدولة الإسلامية الفتية حتى يتمكن من اغتيال الخليفة وبث بذور الفتـنة، وإن كان هـذا المظهر من مظاهر التستر يختلف عما ندرسه نحن والمقصود به التستر على العقيدة الإسلامية اتقاءً للخطر.

والعلويون أيضا كان لهم باع طويل في إخفاء أفكارهم فهذه الفئة منذ مؤتمر السقيفة قبلت ظاهريا بخلافة أبي بكر بينما بداخلها ولاء للإمام علي رضي الله عنه [87]، وكانت تفصح عـن هـذه الفكرة كلما سمحت لها الظروف التاريخية.

وعند انتقال الدعوة – الدعوة لآل البيـت- إلى الفـرع العباسي مورست التقية كأسلوب ناجح لإخفاء أفكـار الطائفـة الشيعية، وبفضل هذا التنظيم السري تمكنوا من إسـقاط الخلافـة الأموية سنة 132 هجري وأصبحت بذلك التقية عقيدة من عقائـد الشيعة.

طائفة أو جماعة إسلامية أخرى كانت لها التقية ركن مـن أركانها وهي طائفة الإسماعيلية وذلك بفضل نصيحة عبد الله بـن

---

87 عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية. الإسكندرية 1988، ص: 105.

القدّاح لمحمد بن إسماعيل الذي صار يلقب بالمكتوم، حتى أن الأئمة بعده أصبحوا يلقبون بالمستورين بذات الله، و تمكنت هذه الطائفة من إقامة دولة لها في بلاد المغرب بعد رحيل سعيد الخير الملقب بعبد الله المهدي مستترا هو الآخر. ويرجع الكثير من المؤخرين أسباب نجاح الدولة الفاطمية في بلأد المغرب إلى مبدأ التستر و الكتمان عند الإسماعيلية.

وهكذا نرى أن أشهر الفرق الإسلامية قد مارست التقية كوسيلة أساسية لتحقيق أهداف معينة وفي ظروف خاصة.و مع تسارع الأحداث في الدولة الإسلامية، وتعدد الفرق والجماعات وقيام الدويلات سواء في المشرق أو المغرب، أصبح مبدأ التستّر شائعا و إن ارتبط أكثر بالشيعة.

لكن الموريسكيين الأندلسيين كانوا أوسع فرقة سنيّة مالكية تطبق مبدأ التقية بعد أن ضاقت بها السبل وافتقدت العون من الإخوان من وراء البحر، لذلك كان اختيار التنصر الشكلي، إذ يتمكّن المتنصّر في هذه الحالة من المحافظة على دين أجداده

سرًّا [88]. وسنرى في الفصـــول القادمـــة كيـــف أبـــدع الموريسكيون في انتهاج أسلوب التقية بطريقة تتم بـــذكاء خـــارق ودفاع مستميت للبقاء على دين محمد (ص).

88 ليوناردو هارفي : تاريخ الموريسكين السياسي والاجتماعي و الثقافي. ص : 326 .

الفصل الثاني

دوافـــع ممـارسـة الأندلسيين للتقيـة

1 – تعنت محاكم التفتيش

2 – رفض الكنيسة للحوار

3 – نقض معاهدة غرناطة

1.2 تعنّت محاكم التفتيش :

من بين أهم العوامل التي دفعت الموريسكيين إلى انتهاج التقية كما ذكرنا سابقا، نجد تعنت محاكم التفتيش وإصرارها على المضي قدما في تطهير إسبانيا المسيحية من هؤلاء المسلمين الذين وقفوا صامدين أمام محاولات التنصير وأفشلوا كل المحاولات التي قامت بها الكنيسة الكاثوليكية والملوك الحاقدين على المسلمين، ويأتي ذلك في اعترافات المشرفين على حملات التنصير، من قساوسة ورهبان، حتى أن الملك فيليب الثالث [89] اعترف بذلك:"... **إنكم على علم بمحاولاتي مدة سنين طويلة لتنصير موريسكيي هذه المملكة بلنسية و كذلك قشتالة ... و بإصداري أوامر العفو منّة منّي عليهم ...و بالنتائج الهزيلة المحصّل عليها، إذ من الواضح أنه لم يتنصر أحد بل على العكس لم يزدهم إلا إصرارا**[90].

---

[89] ابن شارل الخامس حكم بين (1598م-1621م)، تولى الملك بعد الملكين الكاثوليكيين "فرناندو و ايزابيلا" و شارل الخامس ثم فيليب2، فهو إذن آخر الملوك بالنسبة لتاريخ التواجد الموريسكي بإسبانيا، و في عهده تم إصدار قرار طرد الموريسكيين سنة 1609م.

[90] Mercedes Garcia Arenal: los moriscos y la inquisicion –procesos del tribunal de cuenca –Madrid 1978 p: 251-.

إنّ هذه المحاكم التي جاءت كتتويج للحروب الصليبية، قد استهلكت كل طاقة إسبانيا النصرانية وشغلتها، وضيللتها وأضلّت بها [91].فتصرفات محاكم التفتيش هاته طغت على كل نشاط سياسي وديني في إسبانيا المسيحية خلال القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر ميلادي، حتى طرد الموريسكيين ا لنهائي سنة 1610م.

إذ أصبحت إسبانيا تؤمن أنه عليها واجب تطهير أرضها من المسلمين والإسلام الذي أصبحت تخشى منه ومن شبحه [92] فعندما نلقي نظرة متفحّصة على مجريات الأحداث في شبه الجزيرة الإيبيرية بعد سقوط غرناطة نجد تلك الصبغة الدينية الظاهرة لدى المملكة الجديدة. فالقران السياسي بين ايزابيلا وفرديناند دفع بهما إلى توحيد شطري المملكة المسيحية و إظهارها بصبغة دينية ميزتها عن باقي ممالك عصر النهضة، وخوّلت لها ريادة العالم الأوروبي الذي كان يحتفظ بمفاتيح مشاريعه التوسعية في حجر الباباوات [93].

---

91 د.عبد الرحمان علي الحجي: محاكم التفتيش الغاشمة و أساليبها ص: 22.

92 Lunch john: Spain under the halsbourg –London 1965 p:205-.

93 د.حمادي عبد الله: الموريسكيون. ص:22.

وبذلك نجد أن محاكم التفتيش قد أخذت صكًّا على بياض (الضوء الأخضر) لتنفيذ سياستها الغاشمة، لتكون تتويجا لانتصار المسيحية على الإسلام، وتواكب التطورات التي عرفتها إسبانيا منذ القران السياسي بين الملكين الكاثوليكيين، بل أصبحت هذه المحاكم تنظر في تلك الأعمال المروعة التي كانت ترتكبها والوسائل البربرية بعين الكبرياء والرضى، وترى فيهـــا دائمـــا نوعا من الإنقاذ القومي و تطهير الدين والوطن من أثار الإسلام [94].

هذه المحاكم التي أسالت حبر الكثيرين، لم تكن لها ســوى غاية واحدة في نظرنا هي القضاء النهائي على المسلمين بالأندلس، وتطهير إسبانيا من كل من يحمل دين محمّد، فهي إذن تهدف بكل بساطة إلى التصفية النهائية للموريسكيين بالمنطقـــة [95]. وبـــذلك تحقق أهداف الملوك الإسبان وتنفذ توصياتهم وتوصيات البابـــاوات الحاقدين على الموريسكيين، ومن ثمّ فهـــي أداة ووســيلة اتخـــذتها السلطة السياسية الممثّلة في الملوك، والســـلطة الدينيـــة الممثلـــة في

[94] عنان عبد الله: نهاية الأندلس.

[95] Raphael carrasco: peril othoman et solidarite morisque (R.H.M) n: 25- 26 tunis1982. P:33-34.

الباباوات لتنفيذ المشاريع السياسية والدينية لمملكة إسبانيا المسيحية خلال القرنين السادس والسابع عشر ميلادي.

فالملوك والباباوات كلّ يسدي لصاحبه النصائح، ويترك له الوصايا للسّهر على تكثيف جهود محاكم التفتيش ومساعدتها في القيام بوظيفتها المقدسة. فهذا الملك فرناندو الكاثوليكي يترك وصية لشارل الخامس [96] يأمره بضرورة اختيار محققين أكفاء ومخلصين للإيمان الكاثوليكي لتضييق الخناق على طائفة محمّد...[97].

وذلك البابا كليمانت السابع ينصح الملك أن يكلف أعضاء ديوان التحقيق بإتمام عملية التنصير فورا [98] أمّا الملكة ايزابيلا فماتت وهي توصي بمتابعة الحرب ضد أعداء الإيمان المسيحي وتقصد بذلك الموريسكيين [99]، وقرينها الملك فرديناند لم يشذ عن القاعدة فقد أوصى أولاده عام 1516م قائلاً: " عليكم أن تعملوا على تحطيم أتباع الديانة المحمدية"[100]، وبذلك كان لمحاكم التفتيش

---

96 شارل الخامس: تولّى الملك بعد الملكين مباشرة، عرف بتشدده اتجاه الموريسكيين وبحملاته على سواحل الجزائر.

97 Dr: lea: history of the inquisicion of spain –new york 1906. P:215.

98 Danvilla y collado: explusion justificada de los moriscos. Madrid 1889- p:87.

99 Boronat y barrachina: los moriscos espanoles.valencia 1901. P: 142.

100 Ibid.p: 145.

دور كبير في التضييق على موريسكيي الأندلس. فمنـــذ صـــدور قرارات التنصير العمدي، ومنع استعمال اللغة العربيـــة و الملابـــس العربية، ازداد تضييق الخناق على الموريسكيين، وزاد تعنّت محـــاكم التفتيش في ممارساتها كما سنستعرض ذلك.

إنّ هذا التعنّت قد مسّ الأموال والأراضي والأملاك المختلفة حسب رواية أحد الموريسكيين المهاجرين إلى تونس [101].

ونقرأ في الأوامـــر إلى المكلفـــين مـــن مـــوظفي محـــاكم التفتيش:"... ثم تصادرون كل أملاكه، المنقـــول منها والعقار أين وجدت يســـــاعدكم في ذلك جابي محكمـــة التفتيش[102].

فالأوامر كانت تقضي باسترقاق كل من يلقى عليه القبض وهو يحاول الهـــروب، واســـترقاق زوجتـــه وأولاده، ومصـــادرة أموالـــه [103]، ولإظهار هذا التعنّت، نستعرض نماذجا جديدة من تلك الممارسات التي كانت تقوم بها محاكم التفتيش ليس في ظـــلام العصور الوسطى بل مع بداية عصر النهضة الأوروبية كما تدّعي،

---

[101] الأرشيف التاريخي الإسباني (– AHN) دواوين التفتيش- الملف:197.

نقلا عن لوي كارداياك. الموريسكيون الأندلسيون المسيحيون –المحاجة الجدلية-.

[102] نفس المرجع: الملف 803.

[103] رزوق محمد: الهجرة الأندلسية إلى المغرب – الدار البيضاء 1983 ص:81.

ولا باسم التصفية العرقية، بل تحت غطاء الحرب المقدسة كما كانت تزعم **"La Guerra Santa"**.

ولا شك وأن الدارس يجد نفسه أمام مشاهد مروّعة ووحشية بلغت حدّها، وهمجية لا نظير لها إلاّ في جرائم الاستعمار الأوروبي الحديث في إفريقيا وآسيا، مما يوحي له بأن ثمّة مبالغة في وصف الأحداث وتصويرها. وفي هذا المجال لا نجد له من جواب إلا شهادة شاهد من أهلها وهو : **ليورانتي Liorenti**[104]...

"لست أقف لأصف ضروب التعذيب التي كان يوقعها ديوان التحقيق، فقد رواها الكثير من المؤرخين، لكن أصرح أن أحدا منهم لا يمكن أن يتّهم بالمبالغة فيما روى. و لم أر في المحققين إلا رجالا بلغ جمودهم حدّ الوحشية" [105]، وقد اتفق جل المورخين على وحشية الإجراءات المتبعة من طرف محاكم التفتيش، غير أنهم و مهما وصفوا تلك المظاهر المشينة والسياسة التسلطية، فإنهم لم يعطوا الصورة الحقيقية عن معاناة هذه الأقلية، و هذا ما

---

104 ليورنتي "liorent" خدم محاكم التفتيش، و تدرّج في الوظائف حتى وصل إلى مرتبة الأمين العام.

105 **Liorent: historia critica de la inquisicion espanoles –bercelona 1835. P:145.**

نلمسه من خلال تصريحات الدكتورة **ليلى الصبّاغ** [106] : مهما وصف المؤرخون المعاصرون و القدماء مظاهر الاضطهاد التي طبقت في حق المسلمين معتمدين على مختلف الوثائق الإسبانية و العربية ، فإن هذا الوصف يبقى ذابلا أمام الصورة التي قدمها هؤلاء المضطهدون عن أحوالهم في نداء الاستغاثة الشعري الذي وجهوه إلى السلطان بايزيد الثاني سنة 1505م [107].

إنّ الهمجية التي طبقت من طرف محاكم التفتيش الغاشمة، لم تكن تخفى على كل من درس التاريخ الموريسكي و اطلع على الوثائق العربية أو الإسبانية القديمة أوالمعاصرة. لأن هذا الزحف المسيحي الاستردادي لا يملك تقريبا شيئا من الرصيد الإنساني الذي كان سائدا في المجتمع الأندلسي الإسلامي. بل ما طبع هذا الزحف هو سمة الاجتياح السريع [108] فقد خالفت محاكم التفتيش الإسبانية كل الأعراف و القوانين الدولية القديمة منها و الحديثة، فإذا كانت القاعدة القانونية العالمية تقول: " إن المتهم بريء حتى تثبت إدانته "، فإن محاكم التفتيش طبقت العكس " فكل متهم

---

106 الدكتورة الصبّاغ ليلى: ثورة مسلمي غرناطة.ص:116-175.

107 أنظر نداء الاستغاثة في الملاحق.

108 حمادي عبد الله: الموريسكيون: ص: 27.

مذنب حتى تثبت براءته [109] والأدهى من ذلك إن تصرفات هذه المحاكم قد تتجاوز أحيانا كل تقاليد التقاضي والأعراف، ففي كثير من الحالات يكون القاضي هو المدّعي [110]، وبلغ تعنت هـــذه المحاكم حتى أصبحت القاعدة عندها : " لأن يدان مائة بريء زورا وبهتانا خير من أن يهرب من العقوبة مذنب واحد [111].

و لإعطاء صورة أكثر وضوحا حول هذا التعنّت والتسلط نرى بعض المتابعات والمحاكمات. فمنذ دخول الملكين الكاثوليكيين غرناطة، والأوامر تصدر الواحد تلو الآخر، حتى أصبح الموريسكي مقيّدا في كلامه ولباسه، مأكله و مشربه، مسكنه وتعليمه وعملـــه ... وما إلى ذلك. فمُنع الحديث باللغة العربية، ومُنع اللباس العربي، حتى أنهم أجبروا الموريسكي على حمل شارة زرقاء في قبعته [112]، وحرم الموريسكيون من الذهاب إلى الحمامات، وأجبرت النســـاء الموريسكيات على كشف وجوههن [113] و ترك الأبواب مفتوحة

---

[109] توفيق الطويل: الاضطهاد الديني في المسيحية و الإسلام –ط1. دار الكتاب العربي 1947م، ص: 73

[110] نفسه: ص: 73.

[111] نفسه: ص: 74.

[112] عنان عبد الله: نهاية الأندلس: ص: 254.

[113] رزوق محمد: الهجرة الأندلسية: ص: 91.

أيام الأعياد [114] كما صدر قانون يحرم على الموريسكيين بيع الحرير والذهب، الفضة والأحجار الكريمة [115] ولا يجوز بيع الأراضي والأملاك والتصرف فيها بأيّ شكل من الأشكال مع دفع الضرائب المضاعفة [116]، ومصادرة الأملاك ونفي الموريسكيين بموجب قرار صادر سنة 1570م، و شمل هذا القرار حوالي 80 ألف شخص [117]، وغيرها من الأوامر و الإجراءات التي ضيّقت الخناق على الموريسكيين وحدّت من تحركاتهم وجعلتهم يعيشون في سجن كبير، وكل مخالفة للأوامر السابقة تعتبر جريمة كبرى يعاقب مرتكبها، ويقدم إلى محاكم التفتيش، التي تفننت في المتابعة والتحقيق، والأحكام الصادرة.

وقد جنّدت هذه المحاكم السكان المسيحيين للمساهمة في التجسّس على الموريسكيين، وذلك بإصدارها " فرمان الإيمان ". إذ حتّم على كل مسيحي أن ينهي إلى مركز الديوان في غير تباطؤ ما يترامى إلى سمعه بشأن الملحدين " الموريسكيين" [118]. فقنّنت

---

114 Caro baroja: los morisco del reino de grenada –Madrid 1957. P: 159.

115 عنان: المرجع السابق، ص: 353.

116 أحمد رائف: و تذكروا من الأندلس الإبادة – ورقة ثقافية- ديوان المطبوعات الجامعية –الجزائر 1991م. ص: 343.

117 Vincent –B: les bandit morisque en andalousie (R.H.M) 1974. P: 239.

118 توفيق الطويل: الاضطهاد الديني. ص: 72.

الوشاية وأصبحت واجبا مقدّسا واقترنت بالوازع الديني، إذ اعتبرت هذه المحاكم أن المسيحي الذي يقدم الوقود لحرق المتهم "الموريسكي " يستحق المغفرة [119] وبذلك صار كلّ موريسكي مراقب من طرف جيرانه المسيحيين المكلفين بالوشاية عن كل تصرف يقوم به، يفسّر خرقا للأوامر الصادرة و يفهم منه أنه باقٍ على دين محمّد و هي الجريمة الكبرى التي تستحق التّبليغ عنه.

وبعد التبليغ عن المتهم البريء – والتبليغ يتم بواسطة الاعتراف الذي يسمعه القس – يصدر النائب أمرا بالقبض على المبلّغ ضدّه، وزجّه في سجن الديوان السري، و السجون سرّية غاية في الشناعة، تتصل مباشرة بغرف التحقيق و التعذيب، عميقة ومظلمة، رطبة وممتلئة بالحشرات [120]، لتبدأ بعد ذلك أطوار المحاكمة الغريبة.

وقد كان القبض في حد ذاته عقوبة كبيرة، فأملاك السجين كلها تصادر، وتصفّى على الفور وتقطع علاقاته بالعالم الخارجي حتى تنتهي محاكمته، وتستغرق المحاكمة من عام إلى ثلاثة أعوام لا

---

119 نفسه: ص: 73.

120 Dr lea: a history of the inquisition of spain. New york 1906: P: 210.

يعرف السجين ولا أسرته شيئا عن مصيره، وتدفع نفقات سـجنه من قيمة أملاكه.

وأثناء المحاكمة يفقد المتهم كل الحقوق، فشهوده لا يقبلون، في حين يقبل كل شاهد ضدّه، لا يسمح له بالاتصـال بأسـرته، يحاسب على كل حركاته، فكل الحركات التي لا تمت بصـلة إلى تقاليد وعادات المجموعة المسيحية قد تفسر كعلامة على اتباع الدين الإسلامي – كالجلوس على الأرض بدل الكرسـي [121]، مثلمـا حدث لـ: خوان دي فلوراس بطليطلة "Juan de Flores" [122] وغيرها من الحركات، كل كلمة تفسر جريمـة يعاقـب عليهـا صاحبها. فبمجرد ذكـر كلمـة ثـورة يـؤدّي بصـاحبها إلى السقـوط بين أيدي جلادّي محـاكم التفتيش [123].وذلك ما وقع لأندرس لوباز Andres Lopez [124]

---

121 Dr. lea: the morish P: 225.

122 خوان دي فلوراس: موريسكي حوكم في طليطلة عام 1526م بسبب أنّ أحـد جيرانه رآه يجلس على الأرض بدل الكرسي، ففسّر عمله هذا أنّه لازال على دين محمد (ص). فأبلغ محكمة التفتيش بالأمر.

123 رزوق محمد: الهجرة الأندلسية: ص: 97.

124 Cardaillac luis: morisque et chritiens un affrontement polemique. Paris1977. P: 16.

أمّا عن التعذيب فحدث ولا حرج، إذا اعتمــدت محــاكم التفتيش في سجونها معظم أنواع التعذيب المعروفـــة في العصور الوسطـــى [125] مثل: التعذيب بالماء [126]، سحق العظام بآلات ضاغطة، تمزيق الأرجل، فسخ الفك، تعذيب الجاروكا [127].

وقد كشف أحد الضباط الفرنسيين عام 1808م غداة حملة نابليون على أوروبا على مختلف وسائل التعذيب المستخدمة. هــذا الضابط الذي كلّف بمتابعة ملف محاكم التفتيش بعد إلغائها طبعا، وجد ديرا كان مقرا لها. بأحد الدهاليز المظلمة تحت الأرض واطلع على طريقة التعذيب وأدوات الموت هناك، من آلات تكسير العظام وسحق الجسم، ابتداء من عظام الأرجل حتى الــرأس واليــدين، وبالتدريج حتى تأتي الآلة على كل الجسد ليخرج من الجانب كتلة واحدة [128] وآلات سلّ اللّسان، وتمزيق ثــدي النســاء [129] إلى غيرها من آلات التعذيب التي تقشعر الآذان لمجرد ذكرها. إن صور

---

125 Dr. lea: opcit P: 120.

126 يربط المتهم فوق أداة خشبية و رأسه إلى الأسفل، ثم توضع لترات من الماء في فمه حتى يختنق.

127 يربط المتهم وراء ظهره و يعلّق في السقف مقيّد القدمين لعدة أيام.

128 الحجي عبد الرحمان علي: محاكم التفتيش: ص: 35.

129 نفسه: ص: 36.

التعذيب هاته تظهر لنا مدى حقد محاكم التفتيش على الموريسكيين، الذين نعتوا بأقبح الصفات فآزنار كاردونا Aznar Cardona الذي مارس مهنة الكهنوتية يعترف : "بإمكاننا وضع كتاب مطنب حول الكلمات الفضّة والاقتراحات الملحدة التي عرفناها عنهم، غير أنه وجب اعتبارهم أشخاصا ضائعين، وحوشا أغنياء" [130].فقد أُعتبر الموريسكيون وحوشا يستحقون كل عذاب، ونقل ذلك المؤرخ الأمريكي Prescott :" فالملك أبى أن يشارك في قتلهم لا رحمة و عطفا، بل لأنه لا يريد أن يلطخ يده بدماء هذه الوحوش الضارية"[131]، حتى أن الاعتراف بالخطأ لم يكن يشفع لصاحبه، فالذين يعترفون بأخطائهم يجب عليهم التكفير عن ذنوبهم بارتدائهم لباس الفضيحة [132].

وقد طال هذا الازدراء و الشتم حتى الرسول(ص)، فبينما مسيحيان في طليطلة حلف أحدهما باسم محمد و لمّا سأله صاحبه لماذا يفعل ذلك "يحلف بمن لا يؤمن به" ردّ عليه : أحلف باسم

---

130 Aznar cardona: explusion justificada de los moriscos espanoles y suma de la excelencias christianas de nuestro rey don phelip el catolico – Barcelona 1612- 1.F. n: 50.

131 Prescott (w): history of ferdinand and isabella. P: 189.

132 Cardaillac luis: morisque et chritiens : P: 51

محمد الشرير البغي [133]، و لم ينج السلاطين العثمانيون من هـــذا الشتم أيضا، ففي إحدى الرسائل الدبلوماسية نجد :" كل ما أرجوه أن يعاقب ثوار البشرات [134] قبل أن يستطيع هذا الكلب أن يعبّئ قواته " المقصود السلطان العثماني بايزيد الثاني.

وإلى جانب التعذيب الوحشي، والشّتم ، والازدراء، نجـــد التّنكيل بالمتهمين الذين كانوا يساقون في الساحات العمومية وهم يلبسون لباس العار، وحتى الأموات لم يسلموا من تعنّــت محــاكم التفتيش، فمن غرائب المحاكمات "محاكمة الأموات"، إذ يعـــاقبون مثل الأحياء و يخرجون من قبورهم ليحرقوا [135] وما وقع لقائـــد ثورة غرناطة عند إلقاء القبض عليه، خير دليل، فقد أعدم وعلّقت جثّته ثلاثين يوما في الساحة العمومية [136].

---

[133] الأرشيف التاريخي الوطني (AHN) الملف: 193. رقم: 17. نقلاً عن لوي كاردياك: الموريسكيون و المسيحيون.

[134] Brundel (F): la Méditerranée et le Monde méditeranien a l'époque de phelippe2 –Paris: 1949. P:362

[135] Dr. lea: opcit. P: 170.

[136] و للمزيد من غرائب المحاكمات أنظر الدكتور لي: الجزء: 1. الفصل: 18.

أمّا عن العقوبات النهائية فكانت جد قاسية مقارنة مع التهم المبلغ عنها، فهي تتراوح بين مصادرة الأملاك، و دفع غرامات مالية باهظة و التجديف في البحار بدون مقابل، إلى الموت حرقا([137]).

والغريب في الأمر أن قرارات و أحكام محاكم التفتيش تعتبر نهائية وغير قابلة للاعتراض، دون نقاش أو مجادلة ([138]).

ولو حاولنا إلقاء نظرة على بعض الإحصائيات المسجلة لرأينا ما لحق بموريسكيي الأندلس من تسلط و تعنت كبيرين، فعلى سبيل المثال في طليطلة تم الحكم بالإعدام على 1200 شخص في جلسة واحدة ([139]). وفي مدينة آبلة تم حرق 113 شخص خلال ثلاث سنوات (1499م-1502م)([140]).

أمّا في أشبلية فأولى الجلسات التي عقدت أصدرت أحكاما بالموت حرقا ضد 16 متهما، و خلال 08 سنوات تم حرق 700

---

137 Stanley lane pool: the moors in Spain -Beirut 1967. P:273.

138 حتاملة محمد عبده: التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين. ط1. عمان 1980م. ص: 67.

139 نفسه: ص: 67.

140 Opisse Alfredo: historia de espana y los republicas latino americanos. Buines aires. 1977. P: 168.

شخص، و الحكم بالسجن المؤبد و الأشغال الشاقة على 500 شخص [141].

و في بلنسية خلال عام واحد (1558) مثل 259 موريسكي أمام محاكم التفتيش [142]، وفي مرسية بلغ عدد الذين أحرقوا بين سنتي 1557-1563 أي 06 سنوات 350 موريسكيا [143].

لكنه لا يمكن أن نعمّم الحديث عن محاكم التفتيش في كل المقاطعات فهناك اختلافات كبيرة بين كوينكا و طليطلة من جهة و بلنسية و أراغون و غرناطة من جهة أخرى [144]، فسنة 1570م حوكم 300 موريسكي منهم 80% من غرناطة، و من هنا نستنتج أن موريسكيي غرناطة احتلوا الصدارة في المعاناة والمطاردة، فمنذ 1502 م أصدرت الملكة إيزابيلا مرسوما ملكيا يخيّر مسلمي غرناطة

141 حتاملة: نفس المرجع. ص: 68.

142 رزوق محمد: الهجرة الأندلسية: ص: 83.

143 Liorente: hist. Critica: P:130.

144 عرفت غرناطة و أراغون أقسى الإجراءات المتخذة و عانى موريسكيوها الويلات، وبدرجة أكبر بالنسبة للموريسكيين في باقي المقاطعات.

بين التنصير أو مغادرة غرناطة، ولا يبقى ذكر فوق 14 سنة أو أنثى فوق 12 سنة، بعد شهر أفريل [145].

ولو حاولنا بعث الأسباب التي جعلت من غرناطة مسرحا لتسلط وتعنت محاكم التفتيش أكثر من غيرها، لوجدنا إلى جانب كونها العاصمة، فهي آخر مدينة تسقط في يد الملكين الكاثوليكيين، وكونها مدينة الأثرياء والأعيان حتى أن أخو السلطان خوان النمساوي قام بقتل 140 شخصا من الأعيان [146]، إضافة إلى أنها ابتليت بسيسنيروس، هذه الشخصية التي سيطرت على التاريخ الديني لإسبانيا في عهد الملكين [147].و هو الذي تغذى بلبن الحقد في كنيسته على كل ما هو إسلامي، ومن هناك غامرته فكرة الحرب المقدسة [148].

وقد أظهر من الحماس و المباركة لقهر مسلمي الأندلس ما جعل الملكين ينفذان خططه الجهنمية دون مناقشة، فهو الذي ارتكب أفظع جريمة حضارية في غرناطة [149] إذ جمع الكتب

---

145 Ramon Manendez: historia de espana – Madrid 1980. P: 733.

146 عادل بشتاوي: الأندلسيون المواركة. –القاهرة 1983م. ص: 119–.

147 Channu pierre: l'espagne de charles quint. –Paris 1973. T1: P: 531.

148 حمادي عبد الله: الموريسكيون: ص: 130.

149 رزوق محمد: الهجرة الأندلسية: ص: 58.

العربية أكداسا في باب الرملة وأضرم فيها النيران، و لم ينج منها إلا 300 كتاب في الطب والعلوم حملها إلى الجامعة التي أنشأها في قلعة هنارس Alkala de hanares[150].

وهو الذي حول مسجد البيازين الشهير إلى كنيسة سـان سلفادور San Salvador التي ما زالت قائمة إلى يومنا هذا [151].

وكخلاصة لاستعراضنا لصور التعنّت التي مارستها محاكم التفتيش ... يمكننا أن نجد المبرر الكافي لاتباع الموريسكيين أسلوب التقية، لأن إجراءات التجريد الكامل من القومية كانت أقسى مـن أن يتحملها شعبها، فكيف بأحفاد المنصور وعبد الرحمـان؟، [152] لأنّ وضعية كتلك التي عاشها الموريسكيون لا يمكن أن تدفع إلا إلى الكتمان، فكلّ من أجبر على اتباع طريق غير طريقـه، أو سـلوك مخالف لسلوكه، لا شك أنه يضطر إلى إخفاء ما يعتقد خوفا مـن المخاطر.

والأغرب من ذلك أن إسبانيا المسيحية لم تراع الدور الكبير الذي لعبه الموريسكيون في الحياة الاقتصـادية والاجتماعيـة لم

---

[150] نفسه: ص:58.

[151] عنان عبد الله: نهاية الأندلس: ص: 316.

[152] Stanley (L.P): the moors in spain – beirut 1967. P:273.

يشفع لهم ذلك أمام محاكم التفتيش، فاعتبر نفي الموريسكيين أكبر إجراءٍ حطم اقتصاديا إسبانيا وأن ما أصاب ثروتها مـــا زال حتّـــى يومنا هذا [153].

[153] Florecio (J): condicion sociale de los moriscos de espana. –Mdrid 1875. P:100-101.

2.2- رفض الكنيسة للحوار

ومن بين الدوافع التي أدّت بالموريسكيين إلى الذهاب بعيدا في ممارسة الكتمان هو عزم الكنيسة علــى تنصــير المسلمــين بالقــوّة و تطبيق سياسة التنصير القسري، وتنظيم إجراءات التعميد لكل فرد موازاة مع صدور الأوامر الملكية التي تدعم هذا العمــل، ولعل من أخطر هذه العوامل ذلك القرار الذي صدر عــام 1501م في غرناطة من طرف الملكــين الـــكاثوليكيين : يحــرّم علــى الموريسكيين ممارسة كل ما يمتّ بصلة إلى عقيدهم و لغتهم [154].

ولعلّ هذا الضغط الكنسي يجعلنا نطرح السؤال : ما هــي الأسباب التي أدت إلى انتهاج هذه السياسة التنصيرية المجحفــة في حق المسلمين؟ رغــم وجود معاهدة غرناطة التي التزم فيها الملكان باحترام الدين الإسلامي .

وإذا حاولنا الإجابة من خلال ما توفّر لدينا مـــن وثــائق ومصادر غربية و إسبانية فإننا نجد جملة من الأسباب :

---

154 حتاملة محمد عبد الله: التنصير القسري: ص: 79.

- أوّلها : اعتماد السلطة أولا وأخيرا على الكنيسة الكاثوليكية التي كان لها دور فعال في مراقبة المسلمين وتنصيرهم .[155]

فقد كانت الكنيسة تجيش دائما بنزعتها الصليبية القديمة وتضطرم رغبة في القضاء على البقية الباقية من الأمة الإسلامية في إسبانيا [156]، وتزعّمت مسيرة التنصير التي بدأت منذ الاستيلاء على غرناطة، واستطاعت أن تضفي على سياسة إسبانيا المسيحية صيغة الحرب الدينية المقدسة، وأصبحت إسبانيا المسيحية تحت تأثير الحمية الدينية التي طبعتها و جعلت شغلها الشاغل، وهاجسها النابض عبر حياتها يتطلع دوما إلى أمنية الخلاص ممّا هو غير مسيحي، وذلك بتطهير الدم المسيحي من بقايا العصور الخلاسية Mestizaje [157]، وقد ساهم الأحبار بدورهم في تأجيج نار الحقد، ودفع عجلة التنصير بالتأثير على الملوك، فمنذ أن استولى فرديناند على غرناطة والأحبار يطلبون إليه بإلحاح أن يعمل على سحق طائفة محمد من إسبانيا، وأن يطلب منهم إما التنصير أو بيع

---

155 **Bustamente perez: compenido de historia de espana. –Madrid 1952. P:203.**

156 عنّان: نهاية الأندلس ص: 312.

157 حمادي عبد الله: الموريسكيون. ص:130.

أملاكهم و العبور إلى المغرب [158] ونجح رجال الدين في مهمتهم بإقناع الملوك بأنه : من المستحيل أن يعيش المسلمون في صفاء وسلام مع النصارى [159]، وبذلك و ضعت الكنيسة ورجالها حدًّا لذلك التردد الذي ما لبثت السياسة الإسبانية تسلكه إزاء المسلمين. [160] وقد بلغ من تعنت الكنيسة في تطبيق سياسة التنصير القسري أنها أصرت على موقفها لما عارض النبلاء سياستها [161]، بل أكثر من ذلك كانت تعمل باستمرار على إثارة العامّة والحكام ضد المسلمين وحملهم على سوء معاملتهم، وإجبارهم على التنصير أو الرحيل [162]، وقد نجحت الكنيسة في إقناع الملوك بسياستها إذ لم يعودوا يرون في أعمالهم تلك خروجا عن المألوف، ولا خرقا للمعاهدة [163] التي تمت بين الطرفين حيث أصبح الملوك يرون في

---

158 marmol carvajal: rebellon y castigo de los moriscos del reinada degrenada.- Madrid 1946. P: 147.

159 رزوق محمد: الهجرة الأندلسية: ص: 312.

160 عنّان: نهاية الأندلس. ص:312.

161 بلغ سوء التفاهم بين الكنيسة و النبلاء درجة متقدمة، حتى أن سيسنيروس شكّل قوة مسلّحة تكون في خدمة الكنيسة ضد النبلاء.

162 رزوق محمد: نفس المرجع: ص: 80.

163 المقصود هنا معاهدة غرناطة الموقعة بين الطرفين سنة 1492م.

خرقهم لبنود المعاهدة، إنقاذاً لأرواحهم ومحافظـة علـى سـلامة ممتلكاتهم [164].

وإذا كان للكنيسة دور كبير في انتهاج سياسـة التنصـير القسري فإن ذلك لا يمكن أن يمر دون ذكر دور القـس **خمينس سيسنيروس** الذي عرف بجبروته و إصراره على تنصير الموريسكيين بكل الوسائل، هذا الشخص الذي نال حصة الأسـد و سـجل حضورا قويّا في التاريخ الديني الإسباني في عهد الملكين [165] ساهم بتعصبه في تنفيذ مشاريع الكنيسة الكاثوليكية في ما يتعلق بتنصـير المسلمين، و قد اختلف عن غيره من القساوسة والأحبار،فإذا كان أسـقف غرناطـة الأول **هرنانـدو دي تـيلالافيرا** Hernando de talavira رجلا حليما عادلا، أحسـن معاملـة المغاربة، إلا أن الكاردينال خمينس سيسينروس الذي كان من القسم المحارب بين رؤساء الكنيسة و مال إلى العنف و الإكـراه وأسـاء معاملة المسلمين [166] واعترف له الجميع –بما فيهم رجال الدين– بجبروته فقـد وصـفه العلامـة الإيطـالي الأب **"سـكيابريللي**

164 Marmol carvajal: rebllon. P: 147.

165 Channu (p): l'espagne de charles quint. P: 531. Paris 19.

166 أرسلان شكيب: خلاصة تاريخ الأندلس. بيروت 1930م، ص: 295.

Schiaparelli " بالتعصب الكاثوليكي والبربرية ...[167]، لأنه لم يكن يعرف الوسطية في تصرفاته فقد خير المسلمين بين الجـــلاء أو النصرانية [168].

فمثلما حدث الزواج السياسي بين فردينانـــدو وايـــزابيلا حدث التزاوج "البربري" بين الملكين وسيسنيروس لتصفية المسلمين وتنصيرهم، فقد كان على اتفاق لتطبيق الإجراءات التعسّفية رغـــم ما يشاع أن الملكين فوجئا بعملية التنصير القسري [169].

ومهما قيل حول هذا الموضوع – العلاقـــة بـــين الملكـــين وسيسينروس – فإن عمل سيسينروس يبقى مـــن عمـــل الملكـــين ومسؤولية من مسؤولياتهما.

لكن الحديث عن سيسينروس لا ينفي دور باقي الأحبـــار والرهبان، فمنذ إستيلاء فرديناند على غرناطة و الأحبار يطلبون إليه بإلحاح أن يعمل على سحق طائفة محمد من إسبانيا و أن يطلب من المسلمين الذين يودون البقاء إما التنصير أو بيع أملاكهم والعبور إلى المغرب، وبهذا نخلص إلى دور العامل الديني في الحقد على المسلمين.

---

[167] عنّان: نهاية الأندلس: ص: 316.

[168] أرسلان شكيب: نفس المرجع: ص:ك 295.

[169] Braudel: la mediteranee . p: 147

غير أنّ الكنيسة ليست المسؤولة الوحيدة عن سياسة التنصير القسري، و إن كان لها الدور الأكبر في تنفيذ هذه السياسة، فهناك أيضا الملوك الكاثوليكيين الذين تعاقبوا على المملكة منذ سقوط غرناطة، فهؤلاء الملوك يتحملون مسؤولية كبرى فيما حدث للموريسكيين، لما ارتكبوه من مذابح وحشية و نكث فاضح للعهود التي قطعوها على أنفسهم [170]، ويأتي في مقدمتهم " الملكان فرديناند وايزابيلا " اللذان بادرا بإصدار العديد من الأوامر الملكية لتنصير مسلمي غرناطة ، وتخييرهم بين التنصير أو الهجرة، ولتنفيذ سياستهما قرّبا إليهما مجموعة من الأحبار والرهبان وإذا كانت ايزابيلا على علاقة وطيدة بالكثير من الرهبان والقساوسة ،فإن فرديناندو كان يؤمن بأن وحدة العقيدة هي الأساس الأول الذي يمكّنه من توحيد إسبانيا المجزئة، كما أنه كان يخشى بأس المسلمين ويرى أن احتفاظهم بدينهم يقوي أواصر الصلة بينهم وبين إخوانهم في شمال إفريقيا، وبالتالي فإن تنصير المسلمين أو إخراجهم من البلاد هو الضمان الوحيد لسلامة إسبانيا و وحدتها [171].

---

170 حتاملة: التنصير القسري: ص: 60.

171 رزوق: الهجرة الأندلسية: ص: 58.

إنّ هذه القناعات الشخصية العدائية ضد الموريسكيين لم تنته بذهاب فرديناندو وايزابيلا، بل توارثها الملوك الــذين خلفوهمــا فشارلكان أقرّ أيضا التنصير القسري، ليكون سائرا على نهج مــا تمّ في غرناطة وليكون تعــبيرا عــن شــكره لله الــذي نصــره في معاركه [172]، و لم يشذ عن القاعدة فتصرف بقسوة، وقاوم كــل من لم يدن بالكاثوليكية و بذل قصارى جهده لتحقيق وحدة دينية كاثوليكية [173].

وعلى نهجه سار فيليب الثالث الذي اعترف بفشل سياسة التنصير القسري رغم ما بذله من جهود و سخّره من إمكانيــات، فأصدر قراره الشهير بطرد الموريسكيين نهائيا مــن إســبانيا عــام 1609م.

وإلى جانب ما ذكرناه من دور الكنيسة والرهبان والملوك، فهناك سبب أخر كان له دور في سياسة التنصير، وهــو الــدافع الاقتصادي فهناك الكثير من المؤرخين يرون أن الدّافع الاقتصــادي كان له دور كبير في سياسة الحقد والكراهية ضد الموريسكيين، لأن السياسة الإسبانية كانت تخشى دائمــا ذلــك الشــعب الــذكي

---

[172] Braudel: la mediteranee: P: 578.

[173] رزوق: نفس المرجع: ص: 79.

النّابه [174] الذي سيطر على النشاط الاقتصادي بالمملكة، و لذلك وجدنا الطبقات الوسطى من حـــرفيين في المـــــدن ومـــزارعين ورعــــــاة هي التي كانت ضد المسلمين لأسباب اقتصادية أكثــر منها دينية [175].

فمن الطبيعي أن يقع تصادم بين الطائفة الموريسكية النّشطة التي كانت تتولّى إدارة الشؤون الاقتصادية، وتسيطر على أراضـــي الفلاّحين والخدمات، وبين طائفة المسيحيين الذين دخلوا غرناطـــة بعد السقوط، وقد يعود ذلك إلى التطور الاقتصادي الذي عرفتـــه أوروبا مع القرن السادس عشر ميلادي، وظهرت في إسبانيا علـــى غير العادة طبقة غنية مسيحية، هـــذه الأخـــيرة حقـــدت علـــى البورجوازية المسلمة [176] ومن هنا نرى أن إسبانيا لم تراع الـــدور الهام للموريسكيين في المجتمع الإسباني [177]، وإلى جانب الأسباب السابقة الذكر، هناك عامل آخر يمكن التطرق إليه وهـــو عامـــل خارجي، والمتمثل في التطورات السياسية على الضـــفة الجنوبيـــة للمتوسط، وتحركات القوة الإسلامية العثمانية على سواحل الجزائر.

---

174 عنان: نهاية الأندلس: ص: 312.

175 Hauser (P): les debut de l'age moderne. –Paris 1946. P:23.

176 Op cit: P: 24.

177 Modesto la fuente: historia generale de espana. –Madrid 1862. T:8. P:214.

فقد اقترنت حملات الضغط بتطور الأحداث في الضفة الأخرى للمتوسط، فكلما حدث انتصار عثماني أو انتصار سعدي على البرتغاليين، ازدادت حملات التنصير والضغط [178] وأصبحت الحركات العثمانية بمثابة بارومتر لقياس الضغط المسلّط على الموريسكيين، فكلّما انتصر العثمانيون في معركة بحرية، زاد تضييق الخناق على الموريسكيين، ففي عام 1541 م تاريخ إخفاق الحملة الإسبانية على الجزائر، ونجاح السعديين في مهاجمة المراكز البرتغالية على شواطئ الأطلسي، أصدرت السلطات الإسبانية قرارها بتحريم هجرة المسلمين المنصرين من الثغور الإسبانية كما حضرت عليهم تغيير مساكنهم [179] فازدياد القوة العثمانية الإسلامية على سواحل المتوسط و قوّة شوكة السعديين في المغرب الأقصى، كانت من أسباب الإسراع في عمليات التنصير القسري [180].

وبعد استعراضنا جملة العوامل التي رأيناها سببا في دفع عملية التنصير القسري لمسلمي غرناطة بعد السقوط، نستعرض الإجراءات

---

[178] عنّان: نهاية الأندلس: ص: 338.

[179] نفسه: ص: 339.

[180] د/ الصباغ ليلى: ثورة مسلمي غرناطة: ص: 136.

والطرق الشنيعة لاقتلاع الديانة المحمدية من صدور الموريسكيين، وإرغامهم على إتّباع الدّيانة المسيحية.

فبعد أن كانت الفكرة السائدة في السنوات الأولى لاستيلاء الإسبان على غرناطة، هي أن المسلمين سيدخلون في الديانة المسيحية أفواجا، وبدون صعوبات تذكر، فإن فشل محاولات التنصير السلمية هي التي دفعت بسيسينروس إلى فرض التنصير القسري مستعملا كل وسائل الإكراه [181].

وكانت الكنيسة الكاثوليكية تحاول في البداية أن تعمل على تحقيق غايتها (التنصير) عن طريق الوعظ والإقناع، مع مختلف وسائل التنصير المادية، ولكن جهودها لم تسفر عن نتائج تذكر [182]، فجنحت عندئذ إلى انتهاج سياسة العنف و المطاردة، وأقنعت الملوك بأن الوسائل السلمية لا تجدي نفعا، ولذلك وجب استخدام كلّ الوسائل والأساليب الوحشية ضاربة بذلك عرض الحائط بنود اتفاقية غرناطة.

---

[181] Domingnez ortiz: historia de los moriscos vida y tragidia de una menoria. Madrid 1978. P: 18.

[182] عنّان: نهاية الأندلس: ص: 314.

فكان أول الإجراءات تحويل المساجد إلى كنائس، فمنذ أول يوم دخل فيه فرديناندو غرناطة قام بتحويل مسجدها الكبير إلى كنيسة [183] وذلك في جو بهيج [184]، وعلى هذا النحو حوّلت باقي المساجد المنتشرة في مختلف أحياء غرناطة وباقي المدن إلى كنائس.

وهذا العمل لا يثير الاستغراب لكون المسجد بيت الله وفيه يجتمع المسلمون لذكر الله، وبقاؤه يعني بقاءهم على ديانتهم فلا يعقل أن تطبق إجراءات التنصير والمساجد قائمة.

وبعد تحويل المساجد إلى كنائس، بدأت الضغوطات على الموريسكيين لتسهيل مهمة إخراجهم من دينهم و إدخالهم عنوة في الديانة المسيحية، فمنع تعلّم اللغة العربية [185] لأنها الوسيلة التي يقرأ

---

[183] أرسلان شكيب: خلاصة تاريخ الأندلس: ص: 286.

[184] كان الاحتفال باهرا بتحويل أول مسجد إلى كنيسة، إذ دخل الملكان مسجد غرناطة الأعظم فحوّلاه إلى كنيسة و أقيمت الصلاة شكرا لله.

[185] منعت اللغة العربية سواء في التخاطب أو الكتابة، و أجبر الموريسكيون على تعلّم اللغة الإسبانية، و نشر كتاب في بلنسية تحت عنوان: تعلّم العقيدة المسيحية باللغة العربية و القشتالية، من طرف جون ماي:

doctrima chistiana en langua araviga y castillana

بها القرآن و الأحاديث، حتى الذين اعتنقوا المسيحية كان عليهم أن يتخلوا عن اللغة العربية إجباريا.[186]

ولم يكن الحكّام و لا مسؤولي محاكم التفتيش يتساهلون في قضية اللّغة إذ كان الحديث باللّغة العربية من أكبر الجرائم التي يعاقب عليها، وتحمّس القساوسة كثيرا للقضاء على اللّغة العربية، ونشر اللغة الإسبانية وسط الموريسكيين[187] وأصبحت المقولة السائدة لدى الإسبان، أنه لما تكون الشعوب مرتبطة بإمبراطورية واحدة، فإن المغلوبين عليهم تعلّم لغة أسيادهم[188] وفي هذا دلالة على الفصل نهائيا في القضاء على اللغة العربية بشتى الوسائل.

كما أجبر الموريسكيون على تغيير الملابس لتكون مطابقة لملابس الإسبان [189] ومنع الخياطون والصناعيون من الخياطة على الطريقة الإسلامية، وأصبح لازما على الموريسكي وضع شارة زرقاء على قبعته ليميز عن المسيحي، ثم توالت أوامر النهي والتحريم

---

186 Bronat y barrachina: los moriscos espanoles y su explusion. – Valancia1901. Col:2. P: 652.

187 طلب الأب فيقيرا figuira بنشر الكتب القشتالية و البلنسية في أوساط الموريسكيين، بعد نزع الكتب العربية منهم.

188 Bronat y borrachina: los moriscos. P: 269.

189 Caro baroja: los moriscos. P: 52.

لتشمل منع استعمال الحمامات، وخاصة الاغتسال يوم الجمعة [190].

وبلغ الإسبان غاية التعصّب إذ أصدروا مرسوما يحرم على الموريسكيين و على نسائهم أن يغتسلوا أو يستحمّوا في الأماكن العمومية، و أن تهدم جميع الحمامات في غرناطة [191].

ولتسهيل مهمة إدماج الموريسكيين في الوسط المسيحي أجبرت الفتيات المسلمات على الاقتران القسري بالنصارى. وكذلك إجبار الرجال المسلمين على الزواج بنصرانيات [192]، وتمّ توزيع المسلمين على شكل مجموعات وزّعت على الكنائس [193]، لاختلاطهم بالمسيحيين وتلقّيهم تعاليم الديانة المسيحية وعادات وتقاليد الإسبان للتخلي تدريجيا عن العادات الإسلامية، ومنذ اللحظة الأولى لدخول الإسبان غرناطة تمّ توزيع مساحات شاسعة من الأراضي والأملاك على النبلاء المسيحيين والتي كانت

---

190 لأنّ في ذلك دلالة على أن الموريسكي بقي على دينه و هو يحافظ على الطهارة يوم الجمعة، وربما يكون ذلك لأداء صلاة الجمعة خفية، كما منع اللباس الأبيض يوم الجمعة أيضا.

191 Bustamente (P): Compenido de historia. P: 359.

192 حتاملة: التنصير القسري: ص: 73.

193 Domingnez: ortiz: historia de los moriscos. P: 94-95.

ملكا للمسلمين الذين أصبحوا أتباعا [194] وهذا لتمكين المسيحيين من التغلغل في أوساط المسلمين، ومن ذلك أيضا حرمان المسلمين المقيمين في غرناطة من شراء الأراضي و العقارات، ليتم تفريقهم بالقوة بحثا عن لقمة العيش، و يحلّ محلّهم الإسبان، ولتحقيق هذا الغرض فرضت الضرائب الباهضة خاصة بين سنتي: 1495م-1499م في غرناطة، مما دفع بالمسلمين إلى التخلي عن أراضيهم وبيعها بأسعار زهيدة للمسيحيين، الذين أصبحوا ملاّكا جددا، انتشروا وسط العائلات الموريسكية [195]، وبهذه الطريقة تم انتزاع الكثير من الأراضي الواسعة من أصحابها عام 1559م . [196]

وفي هذه الحالة يفقد الموريسكي أرضه، أي يفقد مصدر رزقه، وبالتالي يصبح من السّهل السيطرة عليه، فيقبل التنصير لضمان قوته و قوت عائلته، أو يطرد من المدينة. وهكذا وجد الموريسكيون أنفسهم بين نار التّنصر، وجحيم النفي، وفقدان مصدر الرزق.

---

194 حتاملة: نفس المرجع: ص: 63.

195 Bustamente (p): compenido. P: 360.

196 Braudel: la Méditerranée. P: 588.

وبعد أن قطعت عملية التنصير في غرناطة شـوطا كـبيرا انتقلت إلى باقي المدن، إلى أراغون، كتالونيا، فالنسيا،...ولم تكن في بادئ الأمر بأمر من الدولة الملكية، بل بجهـود فـئـة مـن المسيحيين القدماء.

Christianos viegos [197] وثبت هذا العمل بمرسوم صدر في 2 مارس 1524م يحتم تنصير كل مسلم بقي على دينه، وإذا أبى أخرج من البلاد، وكل من يأبى التنصير ومغادرة الـبلاد يسـترقّ مدى الحياة. و إن كان هذا المرسوم سبقته حملة تنصير واسعة، ففي فالنسيا أجبر آلاف الموريسكيين على التنصير عام 1521م. و هذا ما جعلها توصف بالوضع الخاص[198]. ونفس الشـيء حـدث في أراغون مما جعل سكانها في ثورة دائمة.

وبعد ثورة البشرات في غرناطة وضواحيها فقط نصر أكثر من 50 ألف موريسكي وحولت جميع المساجد إلى كنائس.

ولم يسلم من عمليات التنصير القسري حتى الإسبان الذين أسلموا، فقد أجبر هؤلاء على التنصير هربا من الويلات والاضطهاد الذي كان يصبّ على رأس كل مسلم[199].

---

197 د/ الصباغ ليلى: ثورة مسلمي غرناطة. ص: 120.

198 Menendez y pelayo : historia de espana. madrid 1941. P 730

199 حتاملة: نفس المرجع: ص: 78.

وبلغ حقد الكنيسة، وإصرارها على تنفيذ سياسة التنصير أن صدّت الأبواب في وجه الموريسكيين، و لم تقبل التفاوض معهم. فرغم المحاولات العديدة للتفاوض، إلا أن الكنيسة كانت تقابلها بالرفض[200]، ففي فالنسيا مثلا، تفاوض ممثلو الموريسكيين و ممثلو الكنيسة من أجل الاحتفاظ بهويتهم لمدة 40 سنة، لكن قوبل ذلك بالرفض، ونفس الشيء حدث في غرناطة[201].

إن عملية التنصير القسري كانت تنمّ عن حقد كبير حمله القساوسة والرهبان ضد طائفة المسلمين الباقين في الأندلس بعد سقوطها، ولذلك لم يتوان هؤلاء في طرد كل مسلم أبى أن يتنصر. ففي أكتوبر عام 1570م صدر القرار بنفي المسلمين من مملكة غرناطة إلى داخل البلاد و مصادرة أملاكهم العقارية مع السماح لهم بحمل الأموال المنقولة فقط[202]، إن عملية الطرد هاته لم

---

[200] Longas (P): vida relegiosa de los moriscos. –Madrid 1915. P: 62.

[201] ذكر حتاملة في كتابه: التنصير القسري، أنّ الكاردينال سيسنيروس حاول التفاوض مع الموريسكيين من أجل عودة المياه إلى مجاريها، مع السماح للموريسكيين بالحفاظ على عاداتهم، غير أنّ هذا الأمر لم يلق أيّ اهتمام من طرف الموريسكيين، والسبب يعود في نظرنا إلى خرق سيسنيروس للمواثيق والعهود السابقة، وبالتالي فقد ثقة الموريسكيين فيه.

[202] عنّان: نهاية الأندلس: ص: 375، الصباغ ليلى: ثورة مسلمي غرناطة: ص: 361.

تختلف في همجيتها عن مشاهد التحقيق والتعذيب التي رأيناهـــا في حديثنا عن ممارسات محاكم التفتيش، فحسب المـــؤرخين كانـــت عملية التهجير القسري، لا تدل في الواقع علـــى نتـــائج صـــراع حضارتين، و إنما نتائج صراع التخلّف و الهمجية المســيحية مـــع الحضارة العربية الإسلامية الرفيعة [203].

حتّى المسيحيين أنفسهم [204] تأثروا لمشاهد الموريســكيين وهم يغادرون ديارهم لا لشيء إلا لأنهم رفضوا التخلّي عن دينهم الذي أقرته لهم معاهدة تسليم غرناطة [205].

إن العودة إلى الأرشيف التاريخي الوطني الإسباني تطلعنا على تلك التصرفات الهمجية التي طبعت عمل الكنيسة خلال تطبيقهـــا لعملية التنصير ضد الموريسكيين، هذه الهمجية التي تجعل من إسبانيا مذنبة في حق الطائفة الموريسكية، وبالتالي يمكن إقامة دعوى اتهـــام ضدّها، بسرقات، و مظالم، و اغتيالات وإعدامات جماعيـــة [206]

---

[203] Lapeyre henry: geographie de l'espagne morisque. –Paris 1959. P: 122.

[204] و في هذا الشأن: شهد دون خوان –أخ فرديناندو غير الشرعي– إنّه أكبر حـــزن في العالم أن تشاهد عملية ترحيل أناس عن أرضهم... فقد كانت الأمطار و الثلـــوج تتساقط بغزارة و الرياح تعصف في كل مكان، و هؤلاء التعساء يجرّون أذيالهم، و قد تعلّق بعضهم ببعض، و هم يئنون و يتأوهون...

[205] braudel: la mediterranee. P: 906.

[206] Ibid: P: 581.

ونحاول نقل بعض الصور التي ذكرها المؤرخون عن همجية الكنيسة الكاثوليكية.

ففي ناحية دانية Dania، كان حوالي 600 موريسكي بعد دفاعهم المستميت و تعنّت خصومهم المسيحيين قد قبلوا بالتعميد شرط المحافظة على أرواحهم و لكن عند خروجهم من القلعة قتلوا جميعا [207] كما ذكر الباحث ويليام بريسكوت أن الكونت بيرين نسف مسجدا مليئا بالنساء و الأطفال... وكان الإسبان يقترفون أبشع الجرائم... وكانت تراق أنهار من الدماء...[208].

وبعد توقّف ثورة البشرات الأولى اضطهد النصارى الإسبان الموريسكيين اضطهادا لا مثيل له، فعند نهاية القتال قام الإسبان بأعمال اتّسمت بالقسوة والعنف ضد موريسكيي الأندلس.

وبعد ثورة البشرات الثانية 1569م-1570م بقيادة محمد بن أمية، أرسلت إسبانيا أخا الملك الذي ارتكب فضائع، وذبّح النساء والأطفال و أحرق المساكن [209]،إن هذه الأعمال والجرائم التي ارتكبتها الكنيسة الكاثوليكية في حق الموريسكيين، وصفها

207 رزوق محمد: الهجرة الأندلسية: ص: 81.

208 Marmol carvajal: rebllon. P: 112.

209 أرسلان شكيب: خلاصة تاريخ الأندلس: ص: 297.

المؤرخون بغاية العنجهية والتعصب، فبروديل يلخص ما قـام بـه الحكم الإسباني في غرناطة بقوله: إن كل ما يمكن أن يقـال عـن الاستعمار في أي بلد، وفي أي عصر كان صحيحا بالنسبة لتصرّف الإسبان في مملكة غرناطة المحتلة [210].

أما المؤرخ محمد رزوق فيرى أن : ما قام به الإسبان مـن أعمال أقل ما يقال عنها أنها وحشية و غير إنسانية [211].

وبدوره يقول المؤرخ بريسكوت : إن هذا العمل المحـزن لم يقم به همجي جاهل، و إنما حبر مثقف [212] وقد وقع لا في ظلام العصور الوسطى، و لكن في فجر القرن السادس عشر مـيلادي، وفي قلب أمة مستنيرة تدين بأعظم حدّ بتقـدمها إلى خـزائن الحكمة العربية ذاتهـا [213].

وفيما يلي شهادة سفير فيليب الثاني في باريس، بعث بها في رسالة إلى سكرتيره الأول زياس Cayase بعد عـام مـن ثـورة

---

210 Braudel: la Méditerranée. P: 588.

211 رزوق محمد: الهجرة الأندلسية: ص:60.

212 يقصد به: خمنيس سيسنيروس القس المتعصب.

213 Prescott (w): history Of. Ferdinando. : P: 453.

غرناطة [214]:" إن الموريسكيين اليوم في ثـورة إلا أن المسـيحيين القدماء هم الذين دفعوهم إليها بعنجهيتهم، وسرقاتهم والوقاحة التي كانوا يسطون بها على نسائهم". و لم تكن معاملة رجـال الـدين أفضل، فقد اشتكت قرية موريسكية ضد راعيها الديني (المسيحي)، وعندما حقّق في سبب الشكوى انفجر الأهـالي قائلين :" ليعـزل عـنّا أو ليزوجوه لأن جميع أولادنـا يولـدون بعين زرقـاء كعيونه ".

ولعل أفضل شهادة تلك التي قدّمها واحد من قادة ثـورة غرناطة و هو محمد بن داوود: " كل يوم نسام سوء العـذاب ولا حيلة لنا سوى المصـانعة حتى ينقذنا الموت ممـا هو شـرّ وأدهى ... وقد حكّموا فينا اليهود الذين لا عهد لهم... وفي كل يوم يبحثون عن ضـلالات و أكاذيـب وخـدع و انتقامـات جديدة... ونرغم على مزاولة الشعائر النصرانية و عبادة الصور... ويظلمنا القضاة و تهشّم أوصال فرائس الأجساد [215] ثم تحمل إلى الميدان لتحرق ويتلذذون بمشاهدتها جماعات جماعات" [216].

---

[214] حسب رسالة فرنسيس دي الافا.(F. de. Alava) سفير فيليـب الثـاني في باريس، وجهها إلى كاتب الدولة سایاس (cayas) بتاريخ 29 أكتوبر 1569م.

[215] صورة التعذيب التي ذكرناها سابقا.

[216] Marmaol carvajal: rebellon. P: 114.

هذه شهادات حيّة عما ارتكبته الكنيسة الكاثوليكية، وما لاقاه الموريسكيون من ويلات للحفاظ على دينهم وأنفسهم أمام سياسة التنصير القسري، ولذلك لم يكن أمام الموريسكيين من خيار غير البحث عن أسلوب ناجح للحفاظ على دينهم و النجاة من بطش القساوسة و قضاة دواوين التحقيق. خاصة وأنّ الإسلام يسّر لأتباعه ممارسة الشعائر الدينية في الظروف الصّعبة.

3.2 – نقض معاهدة غرناطة :

لم يكن تسليم غرناطة للملكين الإسبانيين (الكـــاثوليكيين) ليمرّ دون أن يدوّن و يسجل في صفحات التاريخ، كما أن سقوط غرناطة و انهزام قائدها أبي عبد الله الصغير لم يفوّت الفرصة للدفاع عن آخر معقل من معاقل الإسلام في الأندلس، فقد اجتهد آخـــر الملوك الغرناطيين أبي عبد الله الصغير أن يحصل علـــى ضـــمانات مكتوبة من طرف الملكين الكاثوليكيين للحفاظ على بقاء المسلمين في إسبانيا، مع حفاظهم على ممتلكاتهم و أرواحهم ودينـــهم دون مضايقة و لا متابعة، وهي آخر حلقة من مسلسل التّصدّي للهجوم المسيحي الكاسح الذي اجتاح الحواضر الإسلامية بإسبانيا الواحدة تلو الأخرى إلى أن تمكّن من إخضاع آخر حاضرة وهي غرناطـــة. فكان أن وقّع الملكان فرديناندو و ايزابيلا مع الملـــك أبي عبـــد الله الصغير معاهدة غرناطة المشهورة [217] بتاريخ 12 محرم 897 هجري الموافق لـــ: 25 نوفمبر/تشرين الثاني 1491م.

---

[217] توجد الوثائق الخاصة بمعاهدة غرناطة بسجلات بلدية غرناطة و هـــي ملـــك لكاتـــب الملكين فرناندو زافيرا F. de Zafera و نشرها: ميقوال غاريدو آتلانزا Miguel garido atlenza تحت عنوان: los capitulaciones para la entraga de grenada.
كما توجد بالأرشيف العام لسمنكاس Archivo generale de samencas ضمن مجموعة وثائق تحت عنوان: capitulaciones con moros y cabelleros de castilla

إن هذه المعاهدة كما نقلتها المصادر الإسبانية و العربية [218] كانت كافية لضمان شروط البقاء بالنسبة للمسلمين في إسبانيا بعد تسليم غرناطة للملكين الكاثوليكيين، وهذا ما كان يسعى إليه الملك أبو عبد الله الصغير وجنده لأن المعاهدة تضمّنت:

حرية ممارسة الشعائر الإسلامية والمحافظة على المساجد وقوانين التشريع الإسلامي (**البند4**). الحقّ للمسلمين في الاحتفاظ بأسلحتهم وذخيرتهم (**البند5**). لمسلمي غرناطة حرية البقاء أو الهجرة إلى أي مكان يرغبون دون قيد (**البند6**). لا يرغم المسلمون على وضع أي إشارة مميزة (**البند8**). يمنع على النصارى دخول

---

[218] من بين المصادر العربية التي تناولت معاهدة غرناطة نذكر:

- المقري التلمساني: ازدهار الرياض في أخبار القاضي عيّاض.
- // // : نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب.
- مؤلف مجهول: أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر.
- الناصري: كتاب الاستقصاء في أخبار دول المغرب الأقصى.
- عنّان عبد الله: نهاية الأندلس و تاريخ العرب المتنصرين.

و قد أورد الدكتور: حتاملة محمد عبده في كتابه: " التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين" ترجمة كاملة و واضحة للمعاهدة، و قام بترقيمها على شكل بنود من 01 إلى 47، إضافة إلى ملحق سري يتعلق بالامتيازات الممنوحة للملك أبي عبد الله الصغير و عائلته.كما ذكر المصادر الإسبانية التي تناولت المعاهدة.

المساجد دون إذن (**البند12**). ضرورة التقاضي وفق الشريعة الإسلامية (**البند12**). لا يدفع المسلمون للملكين أكثر مما كانوا يدفعونه للملك أبي عبد الله الصغير (**البند25**). وإذا رغب مسلم هاجر إلى المغرب العودة إلى غرناطة فله الحق في ذلك (**البند28**). لا يجوز إرغام مسلم أو مسلمة على اعتناق النصرانية (**البند32**). الإفراج عن جميع الأسرى في غرناطة وضواحيها دون قيد أو شرط (**البند44**)...الخ.

إن هذه المعاهدة ببنودها و موادها المختلفة[219]، جعلت الموريسكيين في بداية الأمر يثقون في السلطات الإسبانية الجديدة، على ما ذكره صاحب كتاب أخبار العصر[220]،"وكتب لهم بذلك كتابا وأخذوا عليه عهودا ومواثيق في دينه مغلظة على أن يوفي لهم بجميع ما شرطوه عليه. ولما تمت هذه العقود قرأت على أهل غرناطة، فلما سمعوا ما فيها اطمأنوا إليها، و انقادوا لطاعته، وكتبوا بيعتهم وأرسلوها لملك الروم". إن هذه الثقة المطلقة لدى الموريسكيين نابعة من شخصيتهم الإسلامية التي تنبذ الغدر وتجرّم

---

219 أنظر الاتفاقية كاملة في الملاحق

220 أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر: مؤلف مجهول: تحقيق شكيب أرسلان. مصر 1925م

الظن السيئ. على عكس الإسبان الذين لم يستطيعوا التخلص من بذرة الخيانة، وضربوا بمبدأ الوفاء بالعهد ضرب الحائط، فالملك فرديناندو منذ البداية كان خائفا من غدر المسلمين، لكن هيهات، فقد بدأ الغدر من طرف المسيحيين الإسبان، بقيادة القساوسة والرهبان، فرغم أن الملكين أوصيا حاكم غرناطة [221] بعد مغادرتها بالرفق في معاملة الرعايا الجدد والتقريب بين العناصر الإسلامية والمسيحية [222]، إلا أنهما لم يطبقا الوصية، وخانا العهد، وأشعلا نار الحقد بدل التقريب بين العناصر الإسلامية و المسيحية كما جاء في وصية الملكين.

ومنذ اللحظة الأولى التي اطمأن فيها الموريسكيون للعهود التي قطعها الملوك على أنفسهم، أصبح الغدر صفة مميزة لدى حكام غرناطة وكاردينالاتها، فحاكم غرناطة المذكور، تنديا اتفق مع الأب تالافيرا[223] بعد جلسة عمل، على احترام الاتفاقيات المبرمة بين المسيحيين والموريسكيين، أن يعاملا المسلمين بناءا على هذه المعاهدات بكل احترام.

---

221 حاكم غرناطة: الكونت تندليا والمركيز دي مونتيخار.

222 المقري التلمساني: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. ج:1. ص: 76.

223 مطران غرناطة قبل أن يخلفه خمينس سيسنيروس، وكان تالافيرا على علاقة ودية مع موريسكي غرناطة.

لكن، ورغم العلاقة الحسنة بين تـالافيزا وتنـديا، وبـين الموريسكيين إلا أنهما لم يلتزما بما اتفقا عليه[224] وظل الـرجلان يعملان بالدرجة الأولى لمصلحة الكنيسة على حسـاب مصـالح الموريسكيين، وهذا ما دفع الموريسكيين إلى الخروج مـن دائـرة الاطمئنان وبداية الحذر بعد أن رأوا العلامات الأولى للغدر والخيانة وعدم احترام بنود معاهدة غرناطة. ومع مرور السنوات وثبـوت خيانة المسيحيين لم يعد يأبه أحد من الموريسكيين بالعهود المقطوعة و لا بالوثائق الموقّعة رغم كثرتها، فبعد انتفاضـة البيـازين الأولى 1500م، وقّعت اتفاقية جديدة، ونفس الشيء بعـد نهايـة ثـورة البشرات سنة 1501م اتفاقية ثانية، وكلّها تتمحور حول: المساواة في المعاملة، السماح للموريسكيين بالمحافظة على الثقافـة العربيـة الإسلامية ...الخ، لكنها بقيت مجرد حبر على ورق، وأكثر مـن ذلك فقد الموريسكيين الثقة، و رفضوا كل دعوة للمصالحة. فبعـد ثورة البيازين سنة 1570م طلب منهم الصلح و أعطوا مهلـة 20 يوما لذلك، لكن أحد منهم لم يتقـدم[225] لأنهـم أدركـوا أن

---

[224] حتاملة: التنصير القسري: ص: 77.

[225] عنان: نهاية الأندلس: ص: 370.

السلطات الإسبانية تسعى لربح الوقت كلما اشتدت المقاومة، ولذلك فأغلب دعوات الصلح جاءت بعد ثورات الموريسكيين، وهذا ما قام به الملكان أيضا، فبعد نهاية الحملة على بلدة: مونديخارا، والمقاومة الباسلة لسكانها حاول الملكان تكسير هذه المقاومة بتعهدهما بالوفاء ببعض بنود معاهدة غرناطة [226]، لكن بمجرد نهاية الثورة أو المقاومة تقبر معها الوعود وتزداد حملة النقض لاتفاقية غرناطة وملاحقة الموريسكيين لصدهم وترهيبهم من القيام بمقاومة جديدة.

فالنظرة المتبصرة لتصرفات الملوك الإسبان والقساوسة الكاثوليكيين من عهود وخيانة لها، ومواثيق وخرق لها، والوعود بالإصلاحات والتنكّر لها، كلها تبين النية المبيتة للتخلص النهائي من المسلمين وطردهم شرّ طرد، وما قاموا به من اتفاقيات مجرد ربح للوقت، وخداع للمسلمين حتى يتركوا السلاح ويأمنوا الجانب المسيحي و لتسهل مهمة التدجين و التخلص من بنود اتفاقية غرناطة.

وإن كانت سياسة الغدر ونبذ بنود اتفاقية غرناطة بدأت منذ دخول الملكين المدينة، إذ بمجرد دخولهما غرناطة أمرا بإحراق

---

226 Fronsesco de paula villa: leccion elementales de historia critica de espana /2:ed –grenada 1899. P: 380

مليون ونصف المليون كتاب ديني بما فيها الوثـــائق والمخطوطـــات [227] وزادت سياسة النقض حدة مع مرور الأيام، وصاحب أخبار العصر الشاهد على الأحداث يروي ذلك بحسرة :" فلما رأى ملك الروم أن الناس قد تركوا الجوار و عزموا على الاستيطان و المقـــام في الوطن أخذ في نقض الشروط التي شرطوا عليه أول مـــرة، و لم يزل ينقضها فصلا فصلا إلى أن نقض جميعهـــا و زالـــت حرمـــة المســـلمين، وأدركهـــم الهـــوان والذلـــة، واســـتطال علـــيهم النصارى ..."[228].

وصوّر الموريسكيون أنفسهم هذه الخيانة و الغدر بمرارة في قصيدة الاستغاثة التي أرسلوها إلى السلطان بايزيد الثاني [229] :

فقال لنا سلطانهم[230] و كبيرهم

لكم ما شرطتم كاملا بالزيـــــــــادة

وأبدى لنا كتبا بعهـــــــــد و موثـــــــــق

و قال لنا هذا أمـــــــــــاني و ذمتي

227 Fransisco preferrera: nobilario de los reinos y seneores de espana. –Madrid 1860-. T:7. P: 136.

228 مؤلف مجهول: أخبار العصر: ص: 404. المقري: أزهار الرياض: ج:1. ص:10.

229 أنظر القصيدة الكاملة في الملاحق.

230 يقصد به: الملكان الكاثوليكيان فرناندو و ايزابيلا.

فلما دخلنا تم عقد ذمامهم

بدا غدرهم فينا بنقض العزيمة

و خان عهودا كان قد غرّنا بها

و نُصّرنا كرها بعنف و سطوة

هذه الشهادة الموريسكية تؤكد مسؤولية الملكين الكاثوليكيين في نقض الاتفاقية، و هذا ما يسقط حجة بعض المدافعين عن الملكين ومحاولة إبعاد مسؤوليتهما في ما وقع من غدر وخيانة، فالملكان كانا على علم بما يرتكب من أعمال فضيعة إلا أنهما تغاضيا عن ذلك، وهما اللذان وقعا اتفاقية غرناطة وكانا يراقبان نقض بنود المعاهدة الواحدة تلو الأخرى [231] دون أن يحرّكا ساكنا، مما يلقي المسؤولية كاملة على عاتقهما، والأخطر من هذا كله أن الملكين وهما يشاهدان خرق اتفاقية غرناطة الموقعة من طرفيهما لم يكونا يريان في ذلك خرقا للعهود المقطوعة، بل فيها حفظا لسلامة المملكة الإسبانية [232].

إن نقض بنود معاهدة غرناطة تواصل طيلة القرن السادس عشر ميلادي و بداية القرن السابع عشر، إلى غاية طرد المسلمين نهائيا من الأندلس عام 1609م، حيث تراجعت الحريات سنة بعد

---

231 حتاملة: التنصير القسري: ص: 60.

232 Marmol carvajal: rebellon. P: 22.

سنة، وخرقت البنود جميعها، فصدور قانون يمنع المسلمين من إجراء الاحتفالات على الطريقة الإسلامية، يعارض البند الرابع من المعاهدة، و إجبار الموريسكيين على وضع شارة زرقاء لتميزهم عن غيرهم ينقض البند الثامن الذي ينص على عكس ذلك. والتنصير القسري للموريسكيين ينقض البند الثاني و الثلاثين.

وإلى جانب الحقد الكبير الذي يظهر من خلال نقض بنود معاهدة غرناطة، يمكن أن نسجل أيضا ذلك التمييز العنصري الكبير بين المسلمين و المسيحيين، في المعاملات المختلفة، رغم أن معاهدة غرناطة تنص على عكس ذلك لكن التعامل مع المسلمين لم يخل من مظاهر الحقد الصليبي، وإلا فبماذا نفسر التمييز بين غرناطة وباقي الإمارات المسيحية الأخرى، فعندما ضمت إسبانيا غرناطة إلى قشتالة أعطتها صوتا واحدا في الكورتيز [233] وجعلتها جزءا منها، و لم تفعل معها ما فعلته نافار الإسبانية عندما ضمتها إليها [234] أو مع البرتغال أيضا [235].

---

233 مجلس محلي للحكم.

234 ضمّت نافار إلى مملكة إسبانيا الموحّدة عام 1512م، و أعطيت امتيازات كبيرة، وحافظت على نظامها و قوانينها المحلية. كما تمتّع مواطنوها بحريات كبيرة.

235 ضمّت إسبانيا البرتغال عام 1580م و أعطتها صلاحيات واسعة.

إن هذه السياسة العنصرية تبين إصرار إسبانيا المسيحية على غلق باب الحوار و التعايش، ونقض العهود والمواثيق لأن السائد لدى السلطات الإسبانية هو أنه : من المستحيل أن يعيش المسلمون في سلام مع النصارى ولا يحافظون على ولائهم للملوك الإسبان، ما بقوا على الإسلام [236].وهذا رغم أن المسلمين تعايشوا في الأندلس لمدة ثمانية قرون مع المسيحيين، ومع اليهود، وأعطوهم نفس الحريات التي عند المسلمين، و لم يحدث أن سجل المؤرخون شكوى لليهود أو غيرهم ضد سياسة التمييز في الأندلس، لكن الإسبان بعد سقوط غرناطة جعلوا من سياسة التعايش كالتجديف ضد تيار الحتمية التاريخية [237] وبذلك ضيّعوا فرصة مهمة كانت – لو احترمت معاهدة غرناطة – ستجعل من إسبانيا رائدة النهضة الأوربية في القرن السابع عشر ميلادي، وذلك باستغلال الذكاء والنباهة الموريسكية، ولو نفذت هذه العهود بولاء لتغير مستقبل إسبانيا كلّ التغير ... لكن ذلك كان غريبا على روح العصر الذي انقضى، وأفضى التعصب والجشع إلى المطاردة والظلم، وأنزلت الكبرياء القشتالية بالمغلوبين ذلاّ مروعا [238].

---

236 Marmol carvajal: rebellon. P:120.

237 حمادي عبد الله: الموريسكيون: ص: 10.

238 Dr. lea: the morish. P: 122.

وهكذا نرى أن سياسة التعنــت الــتي انتــهجها الملــوك الكاثوليك، وروح التعصب التي زكّاها الرهبان و القساوسة بمباركة الكنيسة حامية الدين، فوّتت على إسبانيا فرصة ثمينة لن تعــوّض، كانت ستسمح لها بريادة العالم الأوروبي في بداية عصـــر النهضـــة الحديثة.

الفصل الثالث

التقنية أسلوب دفاع

1.3- آخر الحلول

2.3- اختلال القوى

3.3 – التحضير للعمل العسكري

1.3 – أخر الحلول :

إنّ الحديث عن ممارسة التقية عند موريسكيي الأندلس يدفعنا إلى التساؤل، هل جرب الموريسكيون طريقة أخرى؟ وهل استنفدوا كل السبل؟ وعليه كانوا مرغمين على انتهاج أسلوب التقية طيلة أكثر من قرن، وبعبارة أخرى هل الموريسكيون بانتهاجهم أسلوب التقية كانوا مختارين أم مضطرين؟

والجواب لا يمكن استنتاجه إلا بتمعّن الأوضاع السابقة التي صار عليها هؤلاء من خلال استعراضنا للدوافع (في الفصل السابق)، فهاته الفئة القابضة على دينها كالقابض على الجمر، كما وصفهم مفتي وهران أحمد بن جمعة أصبحت بعد قرون من العطاء – لازالت آثاره باقية في شبه الجزيرة الإيبيرية– فئة غير مرغوب فيها داخل المجتمع الإسباني ، فإسبانيا المسيحية اندفعت في محاولة لتصفية المسلمين، فارضة أقسى الإجراءات عليهم لتنصيرهم بالجملة خلال عشر سنين [239] مستخدمة في ذلك كل الوسائل بما فيها تلك التي تعبر عن جاهلية العصر الأدنى الوسيط، وقد سخّرت السلطة الدينية الكنيسة لتحقيق أهدافها كما رأينا في الفصل سابقًا.

[239] Channu cp) : L'espagne de charles quint . p, 37

ونتيجة لتصرفات الكنيسة وتعنّت محاكم التفتيش وقساوة الملوك الكاثوليكيين، أصبح الموريسكي في مواجهة حملات الانتقام التي شنّها ضده القساوسة و الكاردينالات و مسؤولو محاكم التفتيش والملوك، هذه الحملات الانتقامية التي جعلت من التعذيب والوحشية جزءا من الحياة اليومية للموريسكيين، الذين استنفدوا كل السبل للتخلص من ويلات العذاب.

فالتعذيب أصبح ضروريا اعترف الموريسكي أو لم يعترف [240]، وهو لا يخرج عن أساليب تفنّن فيها المكلفون لا قيل طحن العظام، الصفائح الحمراء المحمية فوق النار لوضعها على البطن، وخلع الفك [241] ففنون التعذيب هاته كثيرا ما كانت تؤدي إلى موت المتهم قبل مثوله أمام المحكمة، كما أنها لم تتغير مع مرور السنوات، ففي السنوات الأخيرة أي عشية صدور قرار الطرد، بقيت تلك المعاملات الشنيعة للكنيسة مستمرة، وقد بلغت درجة شراسة العدوان فضاعة حتى أن جنود النصارى كانوا يسطون على الجثث الهامدة للنساء يحرقونها وينتزعون ما عليها من

.

240 أحمد رائف : و تذكروا من الأندلس . ص – 345

241 نفسه : ص : 346 .

حلي ويقتلعون الآذان و يبقرون البطون ظنا منهم أنها تخبئ ذهبا أو أشياء ثمينة [242].

إنّ الوضع الجديد صيّر كل موريسكي بقي بأرض الأندلس متهما يستحق العقاب و المحاكمة سواء ارتكب جريمة حسب زعم رجال الكنيسة أو لم يرتكب، وسواء قدّمت ضـــده وشـــاية أو لم تقدم، إلا أنه موريسكي لم يتنصّر فهو مذنب يستحق عقوبة المارق عن الدين، فحتّى الطفل المولود حديثا يعد مذنبا حتى يثبت العكس -أي التعميد والانسلاخ عن عادات وتقاليد آبائه - وبذلك تحّول المجتمع الموريسكي كلّه إلى مجموعة إجرامية تستحق العقـــاب، إذ أصبح الجميع - الموريسكيون - في نظر الشعب الإسباني يمثلـــون خطرا على مملكتهم، وأنهم متآمرين ضد أمن الدولة، وهم الحلفـــاء الطبيعيون لإخوانهم قراصنة شمال إفريقيا([243]) وبهذا أصبحت عملية تصفية إسبانيا من الموريسكيين واجبَ كل مسيحي مخلص لدينـــه، كيف لا، وفرديناندو كان آخر ما أوصى به قبل أن يموت للأحبار والرهبان قوله : " انتم تقدمون أعظم خدمة للمســـيح والكنيســـة

[242] حمادي عبد الله : المورسكيون . ص : 85 ، نقلا عن : لابير . Lapyere .
Geographie de l'espagne

[243] Joseph perez : L`espagne du 16eme Siecle . PARIS 1973 . P 108

ولترتح ضمائركم الحية، فموت مائة بريء خير من نجـــاة مـــذنب واحد، أجبروهم على الإيمان فهكذا تحدّث الإنجيل " [244].

فلا عجب إذا أن يشتد الخناق و يزداد الانتقام وبالتـــالي لا يتوفر أمام الموريسكيين مجال للتحرك غير المداراة والكتمان، حـــتى أولئك الذين كانوا يلجأون إلى الكنيسة هربا من بطـــش محـــاكم التفتيش لم يسلموا من المتابعة، وأكثر من ذلك حرّم على المسلمين اللجوء إلى الكنائس والأديرة، وأصبح الموت يلاحقهم داخل الأديرة وأقبية الكنائس التي لم تراع حرمتها المقدسة، [245] وبذلك أصـــبح اللّجوء إلى الجبال والمغارات حبلا للنجاة الوحيـــد الـــذي يبعـــد الموريسكيين عن أعين المراقبة، خاصة بعد اشتداد موجة الانتقـــام، فانتقاما من ثورة مقاتلي بلدة غويخارا سيرًا [246] ارتكب رجـــال الحملة الإسبانية أبشع المذابح، فقتلوا الأطفال الرضـــع و أمهـــاتهم والشيوخ الطاعنين في السن دون هوادة ولا رحمة، ولم يبقوا علـــى أحد و لم يكتفوا بهذه الفعلة المنكرة بل أحرقوا القرية والمنازل على رؤوس أهلها [247].

---

244 أحمد رائف : و تذكروا من الأندلس . ص : 312.

245 حتاملة : التنصير القسري . ص : 78.

246 ثار سكان البلدة لنصرة إخوانهم في ثورة البشرات الأولى عام 1501 م .

247 حتاملة : نفس المرجع . ص : 81

فكيف لا يلجأ الموريسكيون إلى البحث عن أسلوب ناجع للتخلّص من زبانية محاكم التفتيش والكنيسة، فالإهانة بلغت حدًّا لا يطاق، فقد أصبحوا يضعون على المتهم ثوبا بسيطا عليــه رســوم شيطانية وفي يده شمعة وفي عنقه حبل ويطوفون بــه الشــوارع في الطريق إلى حرقه [248].

ولم يعد هناك مجال للتخلص من ويلات العذاب، فالــذي ينجو من التهمة يسلمونه إلى السلطة المدنية، فهو لا يستحق شرف الإحراق بل يقطع رأسه بالفأس [249].

وأمام الذين لم يشفع لهم نشاطهم وخــبرتهم في تصــريف شؤون الزراعة والتجارة وازدهارها على أيديهم [250] فلم يعد لهم حلٌّ غير المداراة و التستر، فالحراسة شدّدت عليهم ونواب الملــك يسعون إلى تجريدهم من السلاح وإبعادهم عن الشواطئ ومــنعهم من الاتّصال مع البروتستانت [251] والعثمانيين [252].

---

[248] أحمد رائف : و تذكروا من الأندلس . ص 310 . و عــرف هــذا المشــهد ، بالأوتوداني Autodeve.

[249] نفسه ، ص : 311.

[250] Braudel : La Mediterrane : T2 . p : 189 .

[251] منع الاتصال مع البروتستانت خوفا من التحالف مع الموركسيين للقيام بثورة ضد الكنيسة الكاثوليكية .

[252] رزوق : الهجرة الأندلسية ، ص : 98 .

فتصرّفات الكنيسة جعلت الموريسكيين أشدّ حقدا على الدين المسيحي [253] خاصّة بعد أن تأكّد لهم خرق بنود معاهدة غرناطة، وفي مقدمتها احترام الدين الإسلامي.

وفي ظل قوانين و مراسيم كنسية تضيق الخناق على الموريسكيين و تتبع تصرفاتهم حتى داخل البيوت وتقدم كل مشكوك في أمره إلى محاكم التفتيش التي لا تتوانى في إصدار أقسى العقوبات، مثلما دوّن في ملفاتها ومحاضرها، أصبحت التقية في هذه المرحلة استراتيجية هامة للحفاظ على الشخصية الإسلامية في أوساط الموريسكيين، خفية عن أعين دواوين التفتيش [254] و بذلك تخلّص الموريسكي مما يجب عمله، إذ أجبر على التنكر لعقيدته واعتناق ديانة أخرى، وأكثر من هذا فإن اختيار البقاء في أرض الأندلس غير ممكن إلاّ إذا انتهج صاحبه أسلوب التقية التي أصبحت قارب بمثابة النجاة ثم صارت موقفا سياسيا بالنظر إلى الأوضاع المحلية [255] فلم يكن من السهل مفارقة الأندلس التي ولدوا فيها

---

253 Marmol carvajol : Rbellon . p : 175 .
254 Cardaillac luis : Morisque et chritiennes . p 35 .
255 حتاملة : التنصير القسري . ص : 101 .

ونشأوا تحت سمائها و امتزج حبّها بدمائهم وعمرّهـــا آبـــاؤهم و أجدادهم ما يقارب الثمانية قرون.[256]

وإلى جانب سياسة الانتقام و التعذيب الوحشي الذي جعل من التقية آخر الحلول المتاحة للموريسكيين هناك "خيبة الأمـــل في وصول النجدة الحقيقية من طرف إخوانهم من وراء البحر، خاصة السلاطين العثمانيين الذين كانوا في نظر الموريسكيين بمثابة الأمـــل الوحيد للنجاة من بطش المسيحيين، وهذا ما نجـــده في نـــداءات الاستغاثة التي وجهها الموريسكيون إلى إخوانهم المســـلمين [257] في العدوة الأخرى من البحر الأبيض المتوسط، لكن تأخر وصول المدد كان له بالغ الأثر لدى الموريسكيين، وقد عبّـــروا عنـــه في تلـــك القصيدة المؤثرة التي أرسلوها إلى السلطان بايزيد الثاني، ومما جـــاء

[256] وإن كان بعض المورسكيين يصرون على عدم قبول التبعية والانسلاخ، ويتحدون المسيحيين، ويرفضون أسلوب التقية رغم خطر محاكم التفتيش، فكثيرا ما كان بعضهم يتحدون المسيحيين في ساحة الإعدام و يمضون التهمة باللغة العربية أمام الملأ ، وهذا ما كان يزيد من غضب الرهبان .

[257] هناك نداءان شهيران ، الأول : وجهوه إلى السلطان العثمـــاني بايزيـــد الثـــاني عام1501 على شكل قصيدة شعرية ، والثاني، في شكل رسالة وجهوها إلى السلطان العثماني سليمان القانوني عام 1541 . انظر الندائين في الملاحق .

فيها تعبيرا عن خيبة الأمل في وصول النجدة، مـــانقرأه في البيـــتين التاليين :

فلما تفانت خيلنا و رجـــالنا و لم نـــر من إخواننا استغاثـــــه

و قلّت لنا الأقوات و اشتد حـــالنا أطعناهم بالكره خوف الفضيحـــه

إن التشبّث بنصرة إخوانهم المسلمين من بايزيد الثـــاني إلى الملك الأشرف سلطان المماليك البرجية قانصوه الغـــوري 1501-1516 الذي طالبوه بالتوسط لدى الملكين الكاثوليكيين وحـــثّهم على احترام معاهدة غرناطة [258] وانتظار بشغف التنســـيق بـــين السلطان بايزيد الثاني والسلطان المملوكي قايتباي ســـلطان مصـــر [259] ليقوم الأول بإرسال أسطول لنقل الموريسكيين انطلاقا مـــن اسطنبول، على أن يقوم المماليك البرجيين بإرسال أســـطول عـــن طريق إفريقيا [260] جعل الموريسكيين ينظرون بعين متفتحة لكل ما يقع من أحداث في شمال إفريقيا، ينتظرون عل أحرّ مـــن الجمـــر وصول هذه النجدة، ولما تأخر وصول هذه المساعدات من المغرب

---

258 Opisso . Alfredo : Historia de Espagna . p : 252 .

259 قايتباي سلطان مصر المملوكية ، من 1468م إلى 1496م .

260 حمودة علي محمود : تاريخ الأندلس السياسي والعمراني و الاجتماعي . القـــاهرة 1957 ص : 302 .

والمشرق، لم يبق سوى ثلاثة خيارات: الموت، التنصير أو الهجرة [261].

و لم يخف الموريسكيون خيبة أملهم في وصول المساعدات التي طالما انتظروها من وراء البحر، كما عبّروا عنها في قصيدة الاستغاثة التي وجهوها إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني ذكرها صاحب كتاب نبذة العصر في أخبار دولة بني نصر [262]: " من إخواننا المسلمين من أهل عدوة المغرب بعثنا إليهم فلم يأتنا أحد منهم، ولا عرّج على نصرتنا و إغاثتنا، وعدونا قد بنا علينا وسكن، وهو يزداد قوة و نحن نزداد ضعفا، والمدد يأتيه من بلاده ونحن لا مدد لنا..."

إن وضعية كهاته، أو بالأحرى الخيارات الثلاثة التي أفرزتها هذه الوضعية : الموت، التنصير أو الهجرة، دفعت الموريسكي بذكائه، وفطنته ورغبته الشديدة في الحفاظ على دينه، وتمسّكه القوي بأرض أجداده، لا يستسلم و يلجأ إلى اتباع أسلوب التقية

---

261 Menendez y pelayo : Historia de Espania – Madrid 1941 . p: 145 .

262 نبذة العصر في أخبار بني نصر . لمؤلف مجهول . ص : 39 طبعة العرائش بتحقيق الفريد البستاني / كما حققه أيضا، الأمير شكيب أرسلان . عام 1952 . وكذا الألماني ماركوس خوريف موليير ، بميونخ عام 1863 .

لتحقيق وضمان تواجده على الضفة الأخرى من المتوسط متحدّياً بذلك جبروت الكنيسة الكاثوليكية وحقد الملوك الإسبان وعنجهية سيسينروس وغيره من الكاردينالات.

وإذا تكلمنا عن خيبة أمل الموريسكيين في وصول النجدة من طرف إخوانهم المسلمين في العدوة الأخرى للبحر المتوسط يجب أن نتطرق إلى فقدان الأمل في التعايش مع المسيحيين الإسبان من جهة أخرى خاصّة بعد أن تأكد للموريسكيون نقض الاتفاقيات والمعاهدات التي أبرمت مع الملوك والقساوسة، بدءاً بمعاهدة غرناطة، إلى تلك التي وقّعها 12 موريسكيا يمثلون جمعيات مسلمي بلنسية مع كاردينال طليطلة ورئيس ديوان التحقيق، لكن الكاردينال نقضها [263]، كما فشلت كل محاولات تحاور بين الطرفين للتوصل إلى حل يرضيهما، ففي عهد شارل الخامس دارت سلسلة من المفاوضات السرية بين الملك و ممثلي الموريسكيين لكنه تراجع وألغى كل القرارات التي تم الاتفاق عليها و أوقف المفاوضات [264] وصار يخطط للثأر من الموريسكيين، ويخطط للهجوم على سواحل المغرب، خاصة بعد الأنباء التي وصلته عن نجاح الجيوش العثمانية فكان يحاول من خلال هجوماته على

---

263 رزوق : الهجرة الأندلسية ، ص : 83 .

264 Miguel la Fuenta : Historia de grenada – grenada 1846/ T:4. P : 181 .

سواحل المغرب منع أية محاولة لنجدة المسلمين للموريسكيين، وزاد خوفه، وحقده على الموريسكيين بعد هزيمته في الهجوم على الجزائر[265] خاصة بعد أن أصبحت الجزائر عروسًا تختـــال في حليّهـــا، وشاعت هذه القصة في مشارق الأرض ومغاربها وبقـــي رعـــب المسلمين في قلوب الكفّار مدة طويلة[266].

وعموما يمكن تلخيص سياسة شارل الخامس في إقامة السلم بين المسيحيين وإعلان الحرب الصليبية ضد المسلمين[267] ولهذا لم يعد يأمنه الموريسكيون ولا يأمنون معاهداته خاصة بعد أن تفشّت حرقة الجوسسة التي شجّعهـــا الملك و الكنيســـة[268].

فنقل أي وشاية عن تصرفات الموريسكيين كانـــت تـــدفع الملك إلى وقف المفاوضات أو التراجع عن قرارات اتخذها لتطبيـــق المعاهدات السابقة، وفي السنوات الأخيرة أصبح الموريســـكيون لا يأبهون لدعوة الملوك إلى عقد معاهدات، أو حتى إجراء مفاوضات لأنهم صاروا يعرفون نتيجتها (النقض) مسبقا.

---

[265] قام شارلكان بحملة عسكرية لإحتلال الجزائر عام 1541 لكنه فشل فشلا ذريعا.

[266] سليم بابا عمر : الزهرة النيرة في ما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنـــود الكفرة . مجلة حضارة و تاريخ المغرب / العدد : 3 . الجزائر . 1967.ص: 19 .

[267] رزوق : الهجرة الأندلسية . ص : 78 .

[268] Cardaillac : le passage des Morisques en lan guidoc mondpellier 1970 p : 34.

من هنا يمكن القول أن الملوك الكاثوليكيين و الكنيسة قد أغلقوا باب الحوار نهائيا مع الأقلية الموريسكية الوطنية حسب وصف بيار فيلار، [269] ولم يعد هناك مجالاً للأمل في الوعود المسيحية، والعيش في سلام مع الإسبان، والموريسكي أصبح مستعمرا في غرناطة، ووجد الإسباني نفسه في غرناطة كما وجد الفرنسي نفسه في العصر الحاضر في الجزائر ... والإنجليزي في الهند، أي في قلب مغامرة استعمارية [270]، وأمام هذا الوضع الذي لا يختلف عن الاستعمار الأوروبي الحديث في شمال إفريقيا وقف المجتمع الأصيل المسلم في غرناطة قويا متحدّيا، على رأسه طبقة من القادة من البورجوازية في البيازين الغنية، وفي قاعدته تقوم بروليتاريا الفلاحين من زارعي الأشجار المثمرة، مربي دودة القز، من الخبراء في فن توزيع قنوات الماء... [271]

وكان هذا التحدي آخر الحلول بعد أن خيّرت الطائفة المسلمة عن طريق محاكم التفتيش بين التنصير أو الرق مدى الحياة [272].

---

269 Pierre viller : Histoire de l`espagne – Paris 1958- p : 31 .

270 Brandel : La Mediterranee . p : 581 .

271 الصباغ ليلى : ثورة مسلمي غرناطة . ص : 131 .

272 Tulio Halperin Donghi : Recouvrement de civilisation Paris 1970- p : 169 .

ونظرا للصفة السرية التي تمارس بها شعائر الإسلام في هـــذه الظروف الحرجة فقد أصبحت تعاليم الإســـلام تقاليـــد موروثـــة يتوارثها الأبناء عن الأباء جيلا بعد جيل في حلقات مغلقة لها صفة المجالس السرية [273].

[273] رزوق : الهجرة الأندلسية . ص : 61 .

2.3 – عدم توازن القوى :

أمر آخر جعل من التقية إستراتيجية أساسية وهو التفـــوق الكلي من حيث العدد و العدّة بالنسبة للطرف المســيحي علـــى حساب الموريسكيين، فعدم تكافؤ القوى كان بارزا بين المسيحيين المجنّدين وراء الكنيسة، سندهم المادي الملوك الكاثوليكيين و المعنوي حماسة الريكو نكستا[274] والرغبة الملحة في طرد المسلمين نهائيا من أرض الِأندلس، وبين مسلمين فقدوا أسباب البقاء هناك بعـــد أن ضاع ملكهم وتفرق شملهم، وأصبح أملهم فيمـــا يصـــلهم مـــن مساعدات من العدوة الأخرى بأرض المغرب.

فبالنسبة للعدد يبدو جليا أن التفوّق كان للمسيحيين، لعدّة اعتبارات تاريخية بعد سقوط غرناطة عـــام 1492م، وإذا حاولنـــا معرفة العدد الحقيقي للموريسكيين فإننا لا نجد إحصائيات دقيقـــة وصحيحة عن عدد المسلمين الباقين في أرض الأندلس بعد السقوط وذلك لتراكم الأحداث من هجرة وتهجـــير و نفـــي وإعـــدامات جماعية...وما إلى ذلك، و بعبارة أوضح عدم الاستقرار الذي عرفه الشعب الموريسكي منذ سقوط غرناطة إلى غاية قرار الطرد النهائي

---

[274] الريكونكستا : Reconquista . حركة دينية و معناها الاسترداد ، قـــام بهـــا المسيحيون الاسبان لاسترجاع إسبانيا من المسلمين و العودة إلى حضيرة النصرانية .

ولهذا اختلف المؤرخـــون في تحديـــد العـــدد الإجمـــالي النـــهائي للموريسكيين، وما يلاحظ عند الحديث عن الإحصائيات أنّ جـــلّ المؤرخين يركزون على غرناطة و المدن الكبرى مثل بلنســـية بلـــد الوليد ...وغيرها، ولا يقدمون إحصائيات وافية عن باقي المـــدن الصغيرة والمقاطعات الجبلية التي لجأ إليها الموريسكيون هروبا مـــن بطش المسيحيين.

وإذا اســـتثنينا المـــؤرخ لابـــيير في كتابـــه: جغرافيـــة الموريسكيين[275]، والذي تتبع تمركز الموريسكيين في مختلف المدن الإسبانية، فإن أغلب المؤرخين يقدمون أرقاما مختلفة عـــن العـــدد الحقيقي للموريسكيين، كما أننا نجد إحصائيات عن سنوات معيّنة ومدن معيّنة دون ذكر الإحصائيات السابقة لها، ولذلك نحاول أن نقدم خلاصة هذه الإحصائيات مع تحليل هرم الأعمـــار، وهـــي العوامل التي أدت إلى تزايد و تناقص الموريسكيين بالأندلس.

فسكّان غرناطة في أوائل القرن السادس عشر كان حـــوالي 700 ألف نسمة[276] وإن كان بعض المؤرخين يرون غير ذلك فعبد

---

275 لابيير : كتب جغرافية الموريسكيين في إسبانيا :

Geographie de l'espagne Morisque. صدر في باريس عام 1959م .

276 Jean pignon : une geographie de l`espagne Morisque – in Etudes sur les moriscos en Tunisie . 1973 .p : 73 .

الله عنان يرى أن العدد يقارب 400 ألف، أما بيـــار شـــاني [277] فيرى أنه نصف مليون نسمة (500 ألف)، وغرناطة كانت تمثـــل المدينة الآهلة بالسكان وأكبر نسبة من الموريسكيين كـــانوا مـــن سكانها لأنها آخر معقل لجأ إليه المسلمون بعد سقوط باقي المـــدن والحواضر، وكانت هي آخر مدينة تسقط في يد المسيحيين في بداية سنة 1492م لكن هذا العدد نجده غير مستقر مع مرور الســـنوات للعوامل التي ذكرناها سابقا.

و مع منتصف القرن 16م أصبح سكان غرناطـــة وحـــدها حوالي 50 ألف نسمة [278] ومالقة 20 ألف و بلنســـية 10 آلاف، وإن كان هذا الرقم في غرناطة يطرح عددا من الشـــكوك حـــول صحّته ، باعتبار سكان غرناطة عرفوا تزايدا كبيرا فإنه يعطي حقيقة أخرى عن عملية الإبادة الجماعية و التهجير المستمر والهجرة المنظمة

---

277 بيار شاني : Pierre Channu له دراسة حول الموضوع في المجلة التاريخية Revue Historique عام 1961 عدد 4 تحت عنوان Minorite et conjoncture

278 Miguel Angel Ladero: Datas Demograficas sobre los Musulmanes de grenada y castilla en el siglo 15. Anuario de Estudios Medievales Bercolona 1972. P: 480.

إلى سواحل المغرب الإسلامي خاصة سواحل المغـــرب الأقصـــى، الجزائر وتونس [279].

وإذا نظرنا إلى عدد السكان في باقي المدن الأخـــرى فإننـــا نشكّك في الرقم المقدم في غرناطة، فمثلا بلغ سكان بلنسية في عهد فيليب الثاني 135 ألف نسمة و في كورونا كاســتيلا 115 ألـــف نسمة، وفي كتالونيا ثمانية آلاف نسمة [280]، وهذا ما يـــدفعنا إلى القول بأن سكان غرناطة يكونون أكثر من باقي المناطق في هـــذه المرحلة ويمكن أن نقدرهم بأكثر من 900 ألف خلال نصف القرن السادس عشر[281]، والمؤرخ الإنجليزي الـــدكتور "لي" Dr: lea يذكر حيين شهيرين في غرناطة كانا هما المسلمون، يضـــم كـــل منهما أكثر من 500 مترل، وكانت أحياؤهم تختلف عـــن أحيـــاء اليهود [282] وعموما يبلغ مجموع سكان الحيين أكثر من 50 ألف نسمة.

---

279 عرفت سواحل المغرب هجرة واسعة للجالية الموريسكية. وقد استقر المهاجرون خاصة في تيطوان. وسلا. في المغرب الأقصى، وسواحل مستغانم ووهران وشرشال والجزائر، وسواحل تونس

280 Menendez R : Historia de Espana. P : 735

281 Dr. Lea: The Morish. P: 31

282 أحياء المسلمين تسمى Moreria أحياء اليهود ghetto حســب الـــدكتور لي دائما.

ومهما اختلفت الإحصائيات و الأرقام حول سكان غرناطة خاصة و سكان الأندلس من الموريسكيين بصفة عامة [283] المجتمع الموريسكي كان في تزايد مستمر موازاة مع حملات الإبادة المنظمة.

فكل المؤرخين أكدوا نسبة الزيادة السكانية في أوساط الموريسكيين، فخلال القرن السادس عشر ميلادي عرف سكان إسبانيا تزايدا -رغم هجرة وتهجير مئات الآلاف من المسلمين- وكذلك اكتشاف أمريكا من طرف الإسبان وتعميرها وفي المقابل هناك تزايد في عدد المسلمين لعوامل دينية [284]، وعدم انخراطهم في الجيش الإسباني [285]، ففي القرن السادس عشر بلغت نسبة زيادة المسيحيين الإسبان 44.7% في حين نجدها عند الموريسكيين 69.7% [286]. ويذكر الشهاب الحجري [287]"... في النصارى

---

283 ذكر الدكتور علي الحجي : حسب التقديرات أن عدد سكان الأندلس عند سقوط غرناطة كان يتراوح بين 06 إلى 08 مليون نسمة . د/الحجي : محاكم التفتيش الغاشمة .ص:27 – 28 .

284 المقصود بالعوامل الدينية : الترغيب في الزواج من طرف الدين الإسلامي الحنيف . والبعد عن حياة العزوبية و الكهنوتية .

285 الصباغ ليلى : ثورة مسلمي غرناطة . ص : 135 .

286 Channu : p : Minorite et conjoncture/revue historique/1961/n:01 . p : 90 .

287 الشهاب الحجري : ناصر الدين . ص : 103 .

كثيرون قسيسون ورهبان ومترهّبات، بتركهم الزواج ينقطع فيهم النسل، وفي الأندلس لم يكن فيهم قسيسون ولا رهبان ولا مترهّبات، إلاّ جميعهم يتزوجون ويزداد عددهم، وهذا أيضا أكده رامون مننديز roman menendez حين ذكر أن سكان غرناطة تضاعف خلال عشر سنوات [288]. والإحصائيات التالية تؤكد ذلك [289]:

المدن السنة	1581	1594
بلد الوليد	1205 نسمة	1474 نسمة
سلامنكا	821 نسمة	1266 نسمة
سيقوفيا	407 نسمة	748 نسمة
بورقوس	52 نسمة	257 نسمة
زمورة	75 نسمة	114 نسمة

و الجدول المذكور لا يحتاج إلى تعليق، فالزيادة واضحة وجليّة خلال عشر سنوات في المدن المذكورة. و في نفس الإحصائيات، نجد هرم الأعمار على الشكل التالي [290]:

---

288 Menendez . R : Hits de ESP . p : 740 .

289 Jean paul le Flem : Les Morisques du Nord ouest de l`espagne en 1594 – Melange de la casa de valesque . T.1 / 1965 Paris – P : 227
و ذكرها كذلك في كتابة Geographie de l`espagne Morisque LAPEYRE :

290 op cit. P : 230 .

المدن	شباب [291]	كهول	شيوخ
بلد الوليد	540	764	170
سلامنكا	508	554	189
سيقوفيا	312	336	97
مناطق أخرى	1115	1564	415

و في تعليقنا على هذا الجدول، نلاحظ:

* كثرة الفئة النشيطة. من [15-50 سنة].

* قلة الشبان أقل من 14 سنة زمن الإحصاء. دليل على القتل والهجرة.

لكن هذه الزيادة المحلية في نسبة الموريسكيين لم تكن كافية للوقوف في وجه حملات التصفية التي واجهها هؤلاء، فالصراع كان قائما على أشده بين مجتمع يتكاثر و ينمو بسرعة ومجتمع يملك أدوات القتل و التهجير و الفناء في الجهة المقابلة. وهكذا لم يبق في الأندلس كلها مع نهاية القرن 16م، وفقا لتقدير سفير البندقية

291 بالنسبة للشباب من 0 إلى 14 سنة، والكهول من 15 إلى 50 سنة و الشيوخ + 50 سنة .

حوالي600 ألف نفس[292]، و الذي قال عنهم في السؤال:" أنهم شعب ينمو بسرعة [293].

لكن المفارقة التي يجب الوقوف عنها: ما هي العوامل التي أدّت إلى هذا العدد الضئيل(600 ألف) في نهاية القرن 16م، رغم ما ذكرناه من تزايد نسبة السكان خلال السنوات المختلفة ؟

الجواب يمكن الوصول إليه من خلال تتبع حركات الموريسكيين خارج إسبانيا. ويمكن تقسيم هذه الحركة –خروج الموريسكيين من إسبانيا- إلى ثلاث صور:

- الهجرة الطواعية.
- النجدة و الإغاثة.
- التهجير و النفي.

<u>بالنسبة للهجرة الطواعية</u>: بدأت منذ سقوط غرناطة وحتى قبلها بسنوات في المدن الأخرى. وأخذت طريق البحر نحو سواحل المغرب العربي، خاصة المغرب الأقصى باعتباره أقرب إلى

---

[292] عنان : نهاية الأندلس ، ص : 381 .

[293] و أكد المؤرخ لابير أن القاطنين في إسبانيا من الموريسكيين في أوائل ق 17م يقدر عددهم بـ 269 الف نسمة، و أن الذين غادروها حوالي 275 ألف ن، و بعملية حسابية فإن المجموع يوافق العدد المذكور من طرف سفير البندقية (600 ألف ن) سنوات قبل الطرد .

الأندلس[294] وهناك من استقر بالجزائر وتونس وحتى وطائفة وصلت أكثر من ذلك، حيث وصلت إلى أمريكا اللاتينية[295].

ويفصل لنا صاحب كتاب:" أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر: الهجرة التي وقعت على إثر سقوط غرناطة، حيث عبر أهل مالقة إلى تلمسان، وأهل الجزيرة الخضراء إلى طنجة، وأهل رندة وبسيطة إلى تطوان...الخ". وهكذا نلاحظ تعدد طرق الهجرة حسب السبل المتاحة.

ويذكر المؤرخون أن مدينة شرشال الجزائرية قد عمّرت تماما من طرف الموريسكيين [296]، أما الملك فيليب الثاني فقد أخبر سفير فرنسا، أنه يوجد بالجزائر 15 ألف ممن يحسنون استعمال الأسلحة النارية من بينهم عشرة آلاف ممن نزحوا من إسبانيا و هم خيرة الجنود[297]، ومعروف أن الموريسكيين عمروا السواحل الجزائرية خلال ق.16م، و تركوا آثارا بارزة في الحياة الاجتماعية والثقافية

---

[294] لمزيد من التوسع : انظر رسالة دكتوراة لمحمد رزوق ، الهجرة الأندلسية إلى المغرب . الدار البيضاء (1983) .

[295] انظر مقال : كارديياك : الموريسكيون في أمريكا / وهو ملحق بكتاب الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون – المجابهة الجدلية .

[296] BRAUDEL :op cit. T2 P : 301 .

[297] BRAUDEL : Les espanols et l`afrique du nord . (1492 – 1577) . Revue Africaine 1928 / P : 358 .

والاقتصادية خاصة في الجزائر العاصمة[298]. كما نزح الكثير من الموريسكيين إلى تونس وعمروا السواحل التونسية ومازالت آثارهم إلى اليوم في مختلف النواحي، الاجتماعية والثقافية والاقتصادية وغيرها. ولذلك لاتستغرب اليوم وجود مركز خاص بالدراسات العثمانية و الموريسكية بتونس[299].

وقد اقترنت الهجرة إلى سواحل المغرب الإسلامي بالانتصارات العثمانية على سواحل المتوسط، كما كانت لهذه الانتصارات العثمانية، والأهمية التي أصبحت عليها اسطنبول عاصمة الخلافة العثمانية، دور في هجرة العديد من سكان الأندلس والاستقرار باسطنبول [300].

وضمن هذا الإطار لا يمكننا أن نتجاهل الدور الكبير الذي قام به خير الدين لإنقاذ الآلاف من مسلمي الأندلس، ونقلهم إلى

---

[298] استقر الموريسكيون عند نزولهم بالجزائر بأعالي العاصمة الحالية، فوق باب الجديد. وعرف حيهم الكبير بحي الثغريين أين يتواجد فندق الأوراسي الحالي، وبقي الاسم إلى اليوم لكن بلهجة فرنسية Les tagarins .

[299] المركز يقع بمدينة زغوان قرب العاصمة التونسية وكان إسمه : مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق و المعلومات . (GEROMDI) ، والأن سمي مؤسسة التميمي للبحث والمعلومات . (.F.T.E.R.S.I) .

[300] Allen . W.E.D : Problem of Turkish Power in the 16 th Centery – London 1963/p:12.

السواحل المغربية[301]، فقد لعب دورا متميزا في نقل الآلاف مـــن الموريسكيين إلى العدوة الأخرى من البحر المتوسط هروبا من بطش زبانية محاكم التفتيش و اتقاء للتنصير القسري وحفاظا على دينهم وحياتهم وحياة أبنائهم، خاصة بعدما أجاز لهم العلمـــاء الهجـــرة والخروج من الأندلس مثل الونشريسي، وفتواه الشـــهيرة حـــول ضرورة خروج المسلمين الموريسكيين من أرض الكفار[302] وهـــي على خلاف فتوى أحمد بن جمعة المغراوي مفتي وهران الذي أجاز للموريسكيين البقاء في أراضي الأندلس مع تطبيق مبـــدأ التقيـــة، أي الكتمان و التستر حفاظا على أرواحهم وقد تمكن خير الـــدين خلال 07 رحلات أن يوجه 36 بارجة إلى الســـواحل الإســـبانية لنقـــل 70 ألـــف موريســـكي خـــلال ســـنة 1528م [303]، و لم يكن الوحيد الذي ساعد الموريسكيين على الهجرة، فهذا بيري

---

301 Julien . ch . A : Histoire de l`afrique du Nord . Tunis, Algerie, Maroc – Paris 1964. /2 ED/p : 254.

302 وهي فتوى معروفة للونشريسي بعنوان : أسنى المتاجر في من غلب على دينه من النصارى و لم يهاجر – انظر الونشريسي . المعيار . ج : 1 و 2 .

303 كاتب شلبي : تحفة الكبار في أسفار البحار ، اسطمبول 1911. ص : 140 .

رايس[304] وكمال رايس [305] شاركا عـــام 1505م في ترحيـــل المسلمين من سواحل الأندلس نحو سواحل شمال إفريقيا واسطنبول تحت رعاية السلطان العثماني.

كما قام أمير البحر: طرغود التركي الذي خلف خير الدين في الرياسة بغارة حمل معها 1500 موريسكي عام 1559م .

وقد شهد ق.16م عدة رحلات و هجرات منتظمـــة نحـــو سواحل شمال إفريقيا، ففي سنة 1570م حملـــت الســـفن جميـــع الموريسكيين في بالميرا. وعام 1548م حمل أسطول الجزائر حـــوالي 2300 موريسكي. وعام 1585م نفس العدد رحل.(وبين ســـنتي 1528-1584م) تم إحصاء حوالي 33 غارة بحرية. وإذا كان عدد المهجرين في كل غارة 2000 فإننا نحصل على أكثر من 60 ألف في

---

304 بيري ريس . ويعرف أيضا بمحي الدين بيري ريس ، وهو أحمد بن الحاج محمد . من عائلة قرامنية ، ولد في قاليبولي، جال سواحل المتوسط وسجل رحلاته في كتابه : البحرية . دخل في خدمة الدولة العثمانية رسميا عام 1495م، شارك مع خاله كمـــال ريس في رحلات بحرية، عمل في الجزائر لصالح خير الدين باشا .أعدم عام 1553م .

305 كمال ريس : خال بيري ريس . هو أحمد بن علي، أحد أشهر أميرالات الدولـــة العثمانية. ولد في قاليبولي ، يعتبر مؤسس المدرسة البحرية العثمانية ، وكان له دور في إدخال وتطوير المدافع القاذفة إلى البحرية العثمانية . ساهم في نجدة مسلمي الأندلس ، وتوفي في البحر عام 1511م .

المجموع. هذا دون ذكر الغارات التي كانت تقوم بها بعض السفن الصغيرة لحمل الموريسكيين. وبرز العديد من الموريسكيين في هذه المرحلة كرياس بحر يشرفون على هذه الرحلات [306].

ولكن لم تكن هجرات الموريسكيين نحو خارج الأندلس كلها طواعية، فقد ساهم الملوك الإسبان في عملية التهجير والنفي واشتملت عقوبات محاكم التفتيش على عقوبة النفي في حالة عدم القبول بالتنصير. وعرف آلاف الموريسكيين هذا النوع من العقوبة، فقد نفي من غرناطة حوالي 40 ألف إلى مناطق مختلفة من إسبانيا، وخارج إسبانيا، ووزع الأطفال على الأديرة، و وزعت النساء والفتيان على الجند[307].

وتوالت حملات التهجير القسري خلال ق.16م و لم تتوقف إلى غاية صدور قرار الطرد النهائي في أفريل 1609م، فقد ذكر المؤرخ أقيلار في حديثه عن المهجرين من بلنسية فقط، أن الذين

---

[306] من قادة الجهاد البحري آنذاك من كبار وزعماء الموريسكيين نجد، الريس بلانكيو Blanquillo . والريس أحمد أبو علي، ومراد الكبير، وخواد يانو، وغيرهم.

[307] أحمد رائف : و تذكروا من الأندلس . ص : 352 .

غادروها ورحلوا منها 130 ألف [308] يضاف إليهم 20 ألف خرجوا فارين قبل صدور قرار الطرد.

وذكر لابيير طرد 40 ألف من كاطالونيا [309]، وقد جرت عمليات التهجير في ظروف غير إنسانية، وبطرق شنيعة فيكدس الرجال والنساء والأطفال في السفن، ولا يسمح لهم بحمل أمتعتهم إلا ما خفّ منها. والكثير منهم مات في البحر قبل أن يصل إلى مراده. وذكر لابيير أن آخر ما رحّل من بلنسية عام 1609م بعد فشل أساقفة جبال لاغوار ومويلادي كورنيس،بلغ أكثر من 116 ألف موريسكي التحقوا بشمال أفريقيا[310].

وقد كتب الكثير من المؤرخين عن مشاهد الطرد التي تعرض لها الموريسكيون خلال ق.16م وبداية ق.17م ثم الطرد النهائي أي من 1609م إلى 1612م تاريخ خروج آخر موريسكي من الأندلس [311].

---

308 Aguilar gaspar : Explusion de los Moros de Espana par la Magestada del Rey .phelipe 3 ./ valencia/ 1610 .p 169.

309 Lapeyre : georgraphie . p : 100 .

310 عرفت عملية ترحيل هؤلاء المسلمين بعملية تحرير بلنسية وأقيمت احتفالات ضخمة بالمناسبة .

و يذكر الدكتور عبد الله حمادي في كتابه : الموريسكيون الأندلسيون . ص : 86 . إن هذه الاحتفالات مازالت تقام إلى اليوم.

311 للتوسع أكثر في عملية طرد الموريسكيين أنظر :

- Aznan cardona : Explusion Justificada de los Moriscos
Bronat y Barrachina : Los Moriscos y su explusion . Marmol carvajal : Hist de la Rebellon de los moriscos del Reino de grenada .

التفوّق في العدة: إن الحديث عن الفرق في العدة بين الطرفين لا يحتاج إلى دليل فالأوضاع التي صار عليها الموريسكيون أظهرت لنا الفرق الكبير بين المسيحيين والمسلمين خاصة فيما يتعلق بالسلاح.

فمسألة السلاح كانت في مقدمة المسائل التي كانت موضع الاهتمام والتشدد، وقد عملت السلطات الإسبانية على تجريد الموريسكيين من السلاح، وهذا ما نلمسه من خلال القرارات المتعاقبة والمتتالية التي تحرّم على المسلمين حمل السلاح، فصدر أول قرار عام 1501م [312] وحرّم هذا القرار على المسلمين حيازة السلاح علنًا أو سرًا، ومن يخالف ذلك سيعاقب بالحبس ثم المصادرة ثم الموت بعد ذلك. وصدر قرار آخر مماثل عام 1526م يحرّم اقتناء السلاح دون رخصة، وعلى الموريسكيين تقديم جميع أسلحتهم في مدة أقصاها 50 يومًا ومن لم يفعل ذلك يعرض نفسه للأعمال الشاقة لمدة 6 سنوات، [313] فإسبانيا المسيحية أدركت من البداية الخطر الذي يهددها جراء تصرفاتها ووحشيتها ولذلك حاولت سدّ أبواب الثورة والانتفاضة بمنع الوسائل وفي مقدمتها حيازة الأسلحة،

---

[312] عنان : نهاية الأندلس . ص : 326 – وقد صدرت قرارات أخرى مماثلة تحرم حيازة السلاح . عام 1555م و 1563م .

[313] Carrasco urgotti (M.S) : EL Problema Morisco en Aragon al Comienzo del reinado de Phelipe II – Madrid 1969 . Cop : 04 / P : 56 .

ومن جهته يضطر الموريسكي إلى الكتمان والتستّر في امتلاك وصناعة الأسلحة.

وإذا كنا لا نجد إحصائيات دقيقة عن أسلحة الموريسكيين في هذه المرحلة نظرا إلى طبيعة الكتمان والسرية التي كانت تتم بهما عملية الصنع والاقتناء [314] فإن الفرق كان واضحا مقارنة بما كان عند الإسبان.

واعترف الموريسكيون بهذا الفرق في القصيدة التي بعثوا بها إلى السلطان بايزيد الثاني ([315]):

- و فرسانهم تزداد في كل ساعة

وفرساننا في حال نقص و قلّة

- فلما ضعفنا خيّموا في بلادنا

ومالوا علينا بلدة بعد بلدة

وهذا على خلاف العدّة الحربية التي كانت لدى الملوك الإسبان. فقد أجمع المؤرخون على امتلاك إسبانيا المسيحية آلاف المدافع ومصانع البارود.

---

[314] ذكر : أحمد رائف في كتابه : و تذكروا من الأندلس الإبادة . أنه كان في غرناطة -عشية التسليم- 03 مدافع ، واحد استولى عليه الملكان ، لكننا لا نظن أن الموريسكيين اكتفوا بمدفعين فقط . بل ضاعفوا من صناعة الأسلحة تحضيرا للعمل المسلح، كما سنستعرض في الفصل الخاص بالتحضير للعمل العسكري .

[315] المقري : ازهار الرياض . ج1 : ص : 109 – 115 .

فقد ذكرنا الدكتور لي عند مقاومة المسلمين لعملية التنصير القسري في بلنسية وبعد لجوئهم إلى ضاحية بني وزير Ben Guasil استخدمت السلطات الإسبانية في حصارهم قوة كبيرة من الجيش مدعّمة بالمدافع وأرغموا المسلمين على التسليم والخضوع [316]، وهذا دليل على تسخير إسبانيا المسيحية للعتاد الضخم في مواجهة الموريسكيين الذين أصبحوا لا حول ولا قوة لهم.

ولتدعيم القوة العسكرية الإسبانية لجأ الملكان الكاثوليكيان إلى استقدام الخبراء والعلماء من جميع أنحاء أوربا خاصة فرنسا إيطاليا، ألمانيا وإنجلترا [317]، لأجل لمساعدة الإسبان على إدخال تحسينات وتعديلات على سلاح المدفعية، وتحضير التجهيزات الخاصة بصناعة البارود والأسلحة. كما قام الملكان بإنشاء جيش من المرتزقة جلبوا من أقطار عديدة خاصة من سويسرا، ألمانيا، فرنسا...البرتغال، إيطاليا[318].

---

316 Dr . lea . History of the Moorish . p : 91 .

317 J . Sotto y Montes : Organisacion militar de los Reys catholicos (1474-1517) – Revisata militar . Madrid – 1963 . N 12 /p : 03 – 47 .

318 J . Sottoy . y . M : La infanteria suiza al servicio de Espana – R . Militar /1972 N32 p : 54 – 55 .

فاختلال موازين القوى كان ظاهرًا للعيان في مجال العتـــاد الحربي بين أقلية مستضعفة سلاحها الوحيد حرصها على الحفـــاظ على دينها و تشبثها بالبقاء في أرض الأجداد، يحدوها أمل النجدة من وراء البحر، في وجه أغلبية تملك الســـلاح والمـــال والرجـــال تؤازرها الدول المسيحية بالخبراء والعتاد.

ولإعطاء صورة أكثر وضوحا على الإمكانيات الإســـبانية المسخرة لمواجهة الموريسكيين، نعطي مثلا عـــن ثـــورة البيـــازين والبشرات، فقد كلّف إخماد هاتين الثورتين خزينة الدولة في عهـــد الملكيين الكاثوليكيين ما يعـــادل 80 مليـــون ميرافيـــدس [319] Miravides ، وسخر الملكان لإخماد الثورتين ما يزيد عن 13 ألف فارس و 50 ألف من المشاة، و2000 قطعة مدفعية. وبلغت الديون 375 ميرافيدي [320]. إن الإمكانيات المسخرة من طـــرف إســـبانيا المسيحية لم تكن بأي حال من الأحوال في متناول الطرف الثـــاني لعدة اعتبارات. وأكثر من ذلك فهناك الاختلاف المعنـــوي بـــين القوتين، فقد رأينا خيبة الأمل تلك التي أصبح عليها الموريســـكيون بعد تأخـــر وصول النجـــدة من المغـــرب الإســـلامي و الدولـــة

---

319 ميرافيديس : Meravides ، عملة إسبانية قديمة تعود إلى عهد النفوذ المرابطي في الأندلس، ومعناها الدينار المرابطي .

320 Riu . Riu . (M) . Leccion de Historia Medieval-Bercolona 1969/Lecc:78-p:483 .

العثمانية [321]، وقد عبروا عن ذلك في رسائلهم العديدة وفي المقابل نجد الإسبان بمعنويات مرتفعة. تدفعهم حماسة الريكوتكستا التي كانت امتدادًا للحروب الصليبية في المشرق تشجعهم الكنيسة وكاردينالاتها بالترغيب في الحصول على الغفران باعتبارهم يقومون بحرب مقدسة "Guerra Santa"، و يؤازرهم الملوك الكاثوليك، وخاصة فيليب الثاني. الذي كان ينتقل إلى أماكن المعارك ليكون أكثر قربا من الأحداث والثورة، وقد وضع تحت تصرف أخيه - غير الشرعي- دون خوان جميع الوسائل التي تساعده على النصر [322]. إذن من الطبيعي جدا أن تصاب طائفة الموريسكيين بالذهول أمام الواقع الجديد، خاصة وأنها الطائفة القليلة من حيث العدد والعدّة...وهي عبارة عن بقايا شتات 08 قرون [323]. لكن هذا الاختلاف لم يمنع الموريسكيين من التحضير للعمل المسلح كما سنرى في الباب التالي.

---

321 و في هذه المرحلة نشطت الإشاعة كوسيلة لزرع الأمل، فقد ذكر سفير فرنسا في الأندلس أن السفراء المسلمين في القسطنطينية قد استقبلوا في الجزائر ووعدوا بآلاف البنادق ترسل إلى مسلمي غرناطة.

322 الصباغ ليلى : ثورة مسلمي غرناطة ، ص : 157 .

323 حمادي : الموريسكيون . ص : 25 .

3.3 – التحضير للعمل العسكري:

إنّ الإحساس بالتفوق الإسباني المسيحي من حيث العدد والعدّة، وازدياد ضغط محاكم التفتيش ومراقبتها المستمرة –حيث أصبحت كابوسا على رقاب الموريسكيين- دفع الموريسكيين إلى التفكير في العمل المسلح للدفاع عن حقوقهم وحفاظا على دينهم، غير أن العمل العسكري لا يمكن أن يتم دون إعداد وتحضير مسبق، والتحضير في ظل الأوضاع التي كان يعيشها الموريسكيون يتطلب استراتيجية خاصة، وسرية مطلقة، لذلك كانت التقية في هذه المرحلة كممارسة تعتبر ضرورة لابد منها للقيام بأي عمل عسكري، لأن دخول معركة غير متكافئة يعني الانتحار بالنسبة للموريسكيين ومن شأنه أن يحطّ من معنوياتهم و يحبط من عزائمهم مع أول انهزام لهم أمام الإسبان.

إن التحضير الذي جرى في الكتمان [324] ترجم إلى انتفاضات و ثورات، كان من أبرزها على الإطلاق تلك الانتفاضة التي هزت حي البيازين [325] العريق. ثم انتفاضة البشرات سنة

---

[324] وإن كان بعض المؤرخين يرى أن الثورات الموريسكية كانت عفوية .

[325] أحد أشهر الأحياء في غرناطة. كان مركزا للثورة والثائرين . وعرف انتفاضة عارمة سنة 1499م .

1501م، وأخيرا انفجر غضب الموريسكيين في ثورة كبرى عرفت بثورة غرناطة 1568م [326]. إضافة إلى انتفاضات محلية عرفتها أغلب المناطق المحيطة بغرناطة والتي استمرت إلى غاية صدور قرار الطرد النهائي سنة 1609م وأشهرها انتفاضة جبل لاغوار ومويلادي كورتيس اللتان كانتا آخر محاولة عسكرية يائسة من طرف الموريسكيين للبقاء في أرض الأندلس.

لكننا لا نفصّل كثيرا في موضوع الثورات لأنه ليس موضوع دراستنا لأننا ركّزنا على دور التقية في الحفاظ على كيان الموريسكيين، وبالتالي فإن أسلوب التقية كممارسة يكون قبل اندلاع الثورات والانتفاضات أي مرحلة الإعداد والتحضير، أما الثورة فهي فعل علني رسمي.

إن التحضير للعمل العسكري لدى الموريسكيين نلمسه من أول يوم سقطت فيه غرناطة و بداية اضطهاد الإسبان للمسلمين، فسقوط غرناطة وما رافقه من نقض للعهود كان بداية للمغامرة ونزول الموريسكيين إلى الميدان والدعوة إلى الجهاد والانتقام الديني [327] انطلاقًا من هذه المدينة التي كانت مسرحا لأكبر

---

326 لمزيد من التفاصيل هذه الثورة . أنظر مقال . د . ليلي الصباغ : ثورة مسلمي غرناطة 1568 . بمجلة الأصالة الجزائرية ، عدد 27/ 1975 . ص : 116 – 176 .

327 Stanly Lane : opcit. p : 26 .

ضروب الانتقام والمتابعة باعتبارها العاصمة الرئيسية، ولأنها آخـــر مدينة تسقط في يد الإسبان التي لجأ إليها الموريسكيون من مختلـــف النواحي التي سقطت منذ سنوات قبل أن يحـــل تـــاريخ جـــانفي 1492م، ففي غرناطة كان اليأس قد بلغ ذروتـــه لـــدى ســـكانها المسلمين الذين تهافتوا على المقاومة والذود عن أنفسهم إزاء هـــذا التعسف [328]، إن أعمـــال المقاومـــة في غرناطـــة نظـــر إليهـــا الموريسكيون على أنها تدخل في إطار المواجهـــة الحضـــارية بـــين المسلمين والمسيحيين [329]، في حين كان يرى فيها الإسبان أعمال لصوص وقطاع طرق وإرهاب و سموها:"El Bandolerismo " في محاولة منهم لإضعاف معنويات الثوار وإضفاء الصيغة القانونية على العقوبات التي ستترل بهم.

كما أن موريسكيي غرناطة لم يكونوا يرون في انتفاضـــتهم دافعا إلى رجوع إسبانيا عن قرارالها، بل كان الهدف منها تكـــوين مملكة غرناطة الإسلامية [330]، ففكرة تكوين دولة كانت ســـائدة

---

328 عنان : نهاية الأندلس ، ص : 361 .

329 Vincent .B : Les Bandits Morisques Andalousie au 16eme Siecle – R-H. (Tunis)1974. P : 389 .

330 Marmol carvajal : Rebellon : 54 : p : 07 .

لدى الأغلبية [331] ومن هنا أخذ التحضير للعمل المسلح طابع الجدية والسرية في نفس الوقت. فاندفع الكثير من الناقمين والملاحقين من طرف السلطات الحاكمة ودواوين التحقيق نحو الجبال القريبة من المدن كلاجئين تحت غطاء السرية. ومع مرور السنين واضطرام نار الانتقام ازداد عدد هؤلاء وأصبح الكثير منهم ليس أمامهم من سبيل العيش سوى التفكير في تنظيم حركات مقاومة مزعجة [332] ووهب الكثير منهم حياته للجهاد في سبيل الله و الانتقام من الذين قضوا على وطنهم و ظلموا أمتهم وانتهكوا حرمة دينهم [333]، هذا الجو المشحون جعل المسيحيين يعيشون تحت خوف انتفاضة عارمة تهز كيانهم وأصبح هاجس الثورة يقلق مضاجعهم ويكدر عليهم صفو حياتهم وصار كل موريسكي بمثابة خطر كبير يخشاه الإسبان، وأضحى الكلام عن الثورة الموريسكية حديث العام والخاص وأنهم لا ينتظرون إلاّ الوقت المناسب وأنهم ساعون لجمع الأسلحة، ومنذ ولادة الطفل فإنهم يبدأون في جمع

---

331 استمرت هذه الفكرة طويلا ، فعند اندلاع ثورة غرناطة احتفل الموريسكيون في 29 ديسمبر 1568 بتتويج ملكهم القائد . محمد بن أمية .

332 الصباغ ليلى : ثورة مسلمي غرناطة . ص : 132 .

333 عنان : نهاية الأندلس . ص : 384 .

الأموال حتى يتمكن عندما يبلــغ ســن العاشــرة مــن شــراء سلاحه [334].

واقترن التفكير في الإعداد للعمل المسلح بصدور القــرارات المجحفة ومدى تمادي الكنيسة في تطبيق التنصير القسري والتضــييق على الحريات العامة للموريسكيين فبعد صدور أوامر تحريم السلاح على الموريسكيين، لم يجد هؤلاء من طريقة سوى اللجوء إلى الجبال والمغارات في سرية تامة والانضمام إلى جماعات المنفــيين لتكــوين النواة الأولى التي ستهز غرناطة فيما بعد[335].

هؤلاء المنفيون الذين يأخذون على عاتقهم مهمة استرجاع الكرامة الإسلامية لإخوانهم، وإن كانوا في الكثير من المرات يخرقون مبدأ التستر في قيامهم بهجمات على المسيحيين في المدن متحــدّين السلطات الإسبانية [336].

ومما سبق يبدو أن فكرة الثورة لم تكن مجرد عمل عفــوي للرد على الضغوطات الإسبانية، بل أعد لهــا، وخطــط ضــمن تنظيمات سرية لا نعرف عنها الكثير. هذه التنظيمات التي احتوت

---

334 Cardarllac : Morisque et chritiens . p 21 .

335 أسعد حومد : محنة العرب في الأندلس – بيروت 1980 – ص : 178 .

336 نفسه : 178.

بدون شك المسلمين المنصّرين في اتحاد المملكة الغرناطية بدليل الكتب التي وجهت إلى الأنحاء المختلفة تطلب الاستعداد والتأهب [337]، مثلما حدث مع محمد بن داوود أحد قادة ثورة غرناطة فيما بعد [338]. فالتحضير للعمل المسلح بغرناطة أمر لا يكاد يشك فيه أحد، بدليل أن اندلاع ثورة غرناطة سنة 1568م لم يكن صدفة، خاصة على الصعيد الخارجي، إذ كانت إسبانيا منشغلة بثورة الأراضي المنخفضة، وجندت الآلاف من جنودها لهذا الغرض. كما أن السواحل كانت مقفرة بسبب الحروب والخوف من الغارات البحرية الإسلامية [339]، فممّا لا شك فيه أن موريسكي غرناطة حضروا جيدا لهذا العمل المسلح، و استغلوا الظروف الداخلية –حالة الغليان والتذمّر من سياسة الكنيسة الشنيعة– والظروف الخارجية المذكورة أنفا.

وإلى جانب استغلال الظروف المناسبة ساعدت ظروف المنفيين وتواجدهم في الجبال والمغارات على إعداد الأسلحة اللازمة.

---

337 الصباغ ليلى : المرجع السابق : ص : 148 .

338 ضبط عند هذا الأخير كتاب موجه من أحد زعماء حي البيازين إلى حكام المغرب، يطلبون فيه الإعانة على الثورة .

339 الصباغ ليلى : نفس المرجع ، ص : 147 .

فذكر المؤرخون أن لهم أماكن لضرب السكة المـزورة وصـناعة الأسلحة داخل المغارات التي يشتغلون بها في اسـتغلال المعـادن كالرصاص والفضة وغيرها [340].

ولا يستبعد أن يكون لتنظـيم الجماعـات [341] دور في التحضير للعمل العسكري باعتبارها بربط الاتصال بين الموريسكيين بعضهم ببعض من جهة و مع الأتراك من جهة أخرى.

لكن الحديث عن التحضير السرّي الذي عرفته غرناطـة لا ينفي وجوده في باقي المناطق، فبدورها عرفـت منـاطق بلنسـية وسرقسطة وضواحيها نفس الجو، جو الإعداد والترقّـب السـرّي لعمل عسكري يعيد للموريسكيين بهذه المدن كرامتهم وعـزّتهم. ففي بلنسية وسرقسطة توصـل محققـو محـاكم التفتـيش إلى أن موريسكيي المنطقة مدفوعون بالموريسكيين المطرودين من غرناطـة يعدون لانتفاضة عامة بمسـاعدة الأسـطول العثمـاني وسـفن جزائرية [342].

---

340 Sanchez perez : Los Moriscos de Harnachos , corsarios de sale / Revista Estudios extremenos (1964 N 20) . p : 94 .

341 تنظيمات موريسكية سرية عرفت بإسم الجماعات Aljamaa وكانت تظم أعيان الموريسكيين إضافة إلى بعض المثقفين .

342 Raphael carrasco : le problem Morisque dans les iles de la mediterranee R.H.M/ 1984 N 35 . Tunis . p 34 .

ولم يقتصر التحضير للعمل العسكري على بلنسية وسرقسطة بل شمل مختلف المدن والضواحي التي كانت ترزح تحت سيطرة الكنيسة الكاثوليكية، وتصارع جبروت محققي محاكم التفتيش، وتضيق درعا بوشاية المسيحيين القدامى، وتنتظر بعين الترقب والأمل مما يجري في غرناطة المجاهدة على حد تعبير موريسكيي الضواحي، ففي إحدى الحملات المسيحية ضد قرية غويخار سيرا guigar sirra لم يجد قادة الحملة أمامهم عند دخول القرية سوى النساء و الأطفال و الكهول، أما الرجال فقد ذهبوا إلى البشرات لمساعدة إخوانهم الثوار المجاهدين [343].

ونفس الاستعداد نجده عند موريسكيي هورناتشوس الذين كوّنوا مركزا إسلاميا وسط أرض مسيحية. وكانوا يظهرون بخصوصيات مميزة، [344] وصمود هذه المدينة ظل بارزا للعَيان خلال ق.16م وهذا ما يفسر كثرة القضايا المسجلة أمام محاكم التفتيش [345].

---

343 حتاملة : التنصير القسري . ص : 81 .

344 bertolome bennasser: unsiecle dor espagnol-paris 1982. P: 28 .

345 fernandez nieva: la inquisicion y los moriscos Barcelona. 1978. P: 135

واستمر الإعداد للعمل العسكري خارج غرناطة حتى السنوات الأخيرة لطرد الموريسكيين نهائيا. فكما ذكرنا أنفا أن جبال مويلادي كورتيس Muella de courtes احتوت محاولتين للانتفاضة [346] أولهما في 20 أكتوبر 1609م والثانية دامت حتى 1611م [347]. ويظهر التنسيق بين مختلف الموريسكيين في مختلف المناطق مع موريسكيي غرناطة التي لعبت دور المدينة الثائرة التي أصبحت قبلة الثوار. مما دفع السلطات الإسبانية إلى محاولة الوقوف في وجه كل محاولة تنسيق مع موريسكيي غرناطة، ففي فيفري 1515م صدر مرسوم ملكي في طليطلة يحرم بتاتًا على المسلمين المتنصرين حديثا من أي جهة من مملكة قشتالة أن يخترقوا أرض مملكة غرناطة، و يعاقب المخالفون بالموت والمصادرة [348].

فهذه غرناطة التي ضمت بين صدرها الثمانمائة سنة بمختلف الشعوب والديانات، من يهود ومسيحيين ومسلمين. وضمنت لهم العيش في أمن وسلام، هاهي اليوم تضيق رحبا بأقلية مسلمة لا

346 حمادي : الموريسكيون . ص : 75 .

347 ما يلاحظ على هذه الانتفاضة أنها تواصلت حتى بعد صدور قرار الطرد الذي أمضاه الملك فيليب 3 سنه 1609م .

348 عنان : نهاية الأندلس . ص : 317 نقلا عن الأرشيف العام لسيما نكاس . Archivo generale de semencas

ذنب لها سوى أنها ترغب في الحفاظ على دينها، ولا عجب في ذلك إذا عرفنا أن حكام غرناطة في هذه المرحلة قد أعماهم تعصبهم لمسيحيتهم عن قبول التعايش مع أولئك الذين عاشروهم حين كانوا حكاما لغرناطة مدة 08 قرون.

إن سرّية التحضير لم تمنع الموريسكيين من محاولة مد جسور التعاون مع الخارج وبالتحديد مع المسلمين في المغرب والدولة العثمانية سيدة البحر المتوسط في ذلك الوقت، فبقدر ما كان الأمل قائما في غرناطة المدينة الصامدة. كان أمل آخر في الجبهة الجنوبية من البحر المتوسط أين يرابط رياس البحر الجزائريون والعثمانيون. فمثلما كانت بلاد المغرب الإسلامي منطلق الفتوحات ومهد الفاتحين الأوائل لأرض الأندلس أضحت بعد ثمانية قرون المنقذ المنتظر للمسلمين المضطهدين و بقايا العصور الزاهية في الأندلس، فلا غرابة إذن أن يفكر الموريسكيون في المغرب الإسلامي كحليف لهم. وقد ذكر المؤرخون أن النّية في التنسيق بين الموريسكيين والمغاربة ظلت قائمة منذ سقوط غرناطة إلى صدور قانون الطرد النهائي، حيث لم يفقد هؤلاء الثقة في قيام تحالف كبير بين مسلمي الأندلس والمغرب لصد الزحف الإسباني الشرس، فانتظار الهجمات الإسلامية ضد الإسبان من خارج البحر كانت حلم كل موريسكي، حتى الموريسكيين الذين انتقلوا إلى العدوة المغربية

انتظموا في شكل جيش سلطان المغرب علـــى ســـواحل مدينـــة سلا [349]، كما كان هناك حوالي 25000 موريسكي في إســـبانيا ينتظرون قيام هجمات من المغرب [350]، وبدورهم كان موريسكيو بلنسية على اتصال دائم مع المجاهدين المغاربة [351].

وإن كانت الرغبة في التنسيق مع المغرب الأقصى بحكم قربه من السواحل الإسبانية [352] فإن الإصرار على الدفاع عن الـــنفس جعل من البحث عن التحالف مع كل القوى الإسلامية في تلـــك المرحلة خاصة الجزائر والدولة العثمانية ضرورة لابد منها.

ومن ذلك أن الرواية الإسبانية تذكر أنه سنة 1573م وقفت السلطات الإسبانية على أنباء مفادها أن أمراء تلمسان و الجزائـــر يخططون للهجوم على سواحل بلنسية بمساعدة الموريســكيين [353] كما أن خير الدين باشا الذي لعب دورا كبيرا في ترحيل و إنقـــاذ

---

349 المقري : نفح الطيب ، ج2 . ص : 617 .

350 Jean Manlau : les etats barbaresques – col : que sais Je ? N :1097 PARIS 1973.P 73.

351 H. Kamen : la inquisicion Espagnol – Paris 1966 p : 126 .

352 ظلت محاولات التنسيق مع المغاربة قائمة حتى صدور الطرد النهائي، ففي 1608 كانت اتصالات موريسكية مع مولاي زيدان ابن السلطان المغربي أحمد المنصور لغزو بلنسية .

353 عنان : نهاية الأندلس . ص : 382 .

الآلاف من الموريسكيين إلى سواحل الجزائر كان ينتظر منه القيام بعمل عسكري كبير ضد إسبانيا المسيحية [354]، وقد كان الموريسكيون يجتازون سنويا وكل فصل ربيع إلى مدينة شرشال، هذه الأخيرة أصبحت مختصة في صناعة هروب الموريسكيين إلى شمال إفريقيا، وأصبحت غاياقا مراكز لصناعة السفن الحربية [355] وانتظم موريسكيو شرشال في شكل جماعات للتنسيق فيما بينهم والتحضير للعودة إلى الأندلس لمواجهة الإسبان. إن محاولات التنسيق مع الجزائر ظلت هي الأخرى قائمة بصفة سرية وجدية، وهذا ما نلمسه من خلال اتصالات فرج بن فرج زعيم ثورة غرناطة مع الجزائر. إذ أنه بعد أن أعدّ العدّة بعث برسله إلى الجزائر والمغرب [356] لطلب النجدة والمساعدة العسكرية. ومّما يؤكد جديّة هذه الاتصالات وسريتها دائما، أن الإمدادات التي بعث بها علي باشا والي الجزائر نزلت على الشاطئ الأندلسي وسارت إلى الأماكن المحددة لها [357] ومن غير المستبعد أن

---

354 Julien . ch . A : Hist . de . L`Afrique du Nord . P : 254

355 Braudel : Conflits et refus de civilisation Espagnoles et Moresques /A.E.S/oct.DEC – 1947 – N 4 - p : 402 .

356 موريسكي مجهول : أخبار العصر . ص : 123 .

357 نفسه . ص : 123 .

الجزائريين شاركوا إخوانهم في ثورة غرناطة 1568م و باقي الثورات الأخرى، باعتبار أن كلّ المصادر التي تناولت موضـوع الثـورة الموريسكية أشارت إلى الاتصالات المكثفة مع الجزائر، خاصة بعـد أن ذاع صيتها في البحر الأبيض بقدوم الأخوين خير الدين وعروج، وانهزام جيش شارلكان شر هزيمة على سواحل الجزائر.[358]

وإذا كان التنسيق مع الجزائر فرض نفسه بقوة خلال القرن 16م، فمن الطبيعي أن يتم التنسيق والاتصال بالدولـة العثمانيـة باعتبارها القوة الإسلامية الكبرى في هذه المرحلة، وأسطولها المرابط على سواحل الجزائر والمغرب، وحنكة رياس البحر الأتراك باتـت تقلق دول أوربا المسيحية. فكان الإسبان يعتقدون أنه لولا ظهـور العثمانيين بالمغرب لتمكنوا من إنشاء مملكة على السواحل المغربيـة[359]، ونقل سفير فرنسا في إسبانيا[360] أن أحـد الموريسـكيين اعترف بأنه يوجد اتفاقيات بين إخوان لهـم في الديـن وبـين

---

358 هزيمة شارلكان سنة 1541م حيث استغل فرصة سفر خير الدين إلى القسطنطينية و قاد أعظم حملة مسيحية أوروبية في ق 16 و 17م . لكن وجود حسن آغـا أذاق الأمبراطور أمر هزيمة سجلتها كتب التاريخ .

359 L. Guin : quelque Notes sur les entreprises des espagnoles pendant la 1er occupation d`oran – Revue Africaine N° 178/1886-p : 313 .

360 و هو السيد : فوركفو . Fourque vaux .

الأتراك[361]، ولعبت الإشاعة دورا كبيرا في نشر الأخبار عن النجدة العثمانية المنتظرة. ونشطت دواوين محاكم التفتيش في تقفي آثار الموريسكيين المقيمين على السواحل والمسافرين إلى خارج الأندلس، واستطاعت محاكم التفتيش أن تجمع معلومات بشأن الاتصالات مع الأتراك، فقد أورد الجواسيس أن مبعوثا من الحكومة التركية اسمه: خوان دورات Juan Durat زار عدّة مناطق موريسكية وعقد اجتماعات مع الموريسكيين للتخطيط للثورة. [362] ولم يتوقف الحديث عن التحالف الموريسكي العثماني حتى صدور قرار الطرد النهائي مع بداية ق.17م.

ومن هنا كان خوف الإسبان كبيرا من سواحل المغرب الإسلامي، منذ الوهلة الأولى لسقوط غرناطة. فالملك فرناندو أمر سنة 1507م بالاحتياطات من الغارات المنتظرة من سواحل المغرب الإسلامي (المغرب والجزائر) واتخذت إجراءات وقائية لمنع حدوث هذا الأمر.

فحرّم على الموريسكيين السفر على أبعاد محددة من الشاطئ، كما تم إخلاء الشاطئ الجنوبي من جبل طارق إلى

---

[361] الصباغ ليلى : ثورة مسلمي غرناطة . ص : 144 .

[362] raphael carrasco : le problème Morisque . p : 37

المرية [363] وتوالت القرارات والأوامر بهذا الشأن. فسنة 1579م صدر قرار يمنع الموريسكيين من دخول المناطق البحرية، و دعّم بقرار آخر مماثل عام 1586م [364]. و تم تحصين الشواطئ الإسبانية بتعزيزات أمنية تحسبا لأي هجوم خارجي.

وقبل أن نختم موضوع محاولات الموريسكيين للتحالف مع إخوانهم المسلمين سواء بالمغرب أو الجزائر وتركيا للقيام بعمل عسكري موحّد ضد إسبانيا المسيحية، نشير إلى وجود محاولات تحالف أخرى مع قوى غير إسلامية، وخاصة مع طائفة المسيحيين البروتستانت داخل إسبانيا وخارجها. وذكر هذا سفير فرنسا فوركفو، وأكد الكثير من المؤرخين وجود اتفاق سري بين الجماعات [365] وبين طائفة البروتستانت [366]. وهذا ما تضمنته التهمة الموجهة إلى الفرنسي: فرنسيسكو ناليا Francisco nalia سنة 1775م والذي كان واسطة بين الطرفين.

---

363 عنان : نهاية الأندلس . ص : 385 .

364 Braudel : Conflits et refus ... p : 403 .

365 تنظيمات موريسكية تضم الأعيان والمثقفين .

366 Raphael carrosco : le problème Morisque . p 37 .

وخارج إسبانيا كانت للموريسكيين اتصالات مع هنري4 ملك فرنسا [367] الهدف منها حسب المؤرخ عبد الله عنان غـــزو بلنسية.

وبعيدا عن التحالف الموريسكي الخارجي، هنـــاك فئـــات أخرى وتحت دوافع مختلفة كانت تسعى لتقديم المســـاعدة لهـــذه الطائفة، مثل بعض الإسبان التزهاء [368] الذين أبدوا رغبتـــهم في تقديم العون للموريسكيين للوقوف ضد تسلط الكنيسة [369].

وبعيدا عن إسبانيا فمن صقلية نجد الصدر الأعظـــم محمـــد الصقلي يخطط للهجوم على إسبانيا المسيحية بغرض نصرة إخوانـــه الموريسكيين، وإنه اقترح على السلطان القيام بحملة على إســـبانيا بدل قبرص[370] وهذا يدل على النخوة الإسلامية، وروح الثأر عند السلاطين المسلمين وإن اختلفت أصولهم.

---

367 H . Kamen : la inquisicion . p : 126 .

368 حوكم أحد الإسبان المسيحيين و هو خوان دي اوريالا Juan de oriala بتهمة ربط علاقات مع الموريسكيين، ومساعدتهم في التحضير للعمل المسلح .

369 Carrasco Raphael : IBID . p : 38 .

370 التميمي عبد الجليل : الدولة العثمانية و قضية الموريسكيين – المجلـــة التاريخيـــة المغربية – عدد 23 ، 24 / 1981 . ص : 197 .

وعموما فإن التحضير للعمل العسكري عند الموريسكيين لم يتوقف يوما، و لم تنطفئ شعلة الثورة لدى هذه الفئة الصامدة المقاومة رغم النتائج الهزيلة المحصل عليها بعد كل ثورة. ولهذا بقي الأمل يحدو الطائفة الموريسكية في نجاح الانتفاضات الجديدة، لذلك غدت التقية أسلوب دفاع لا مناص عنه لتحقيق الأهداف المسطّرة.

الفصـــل الرابـع

أساليــب التقــيةعند الأندلسيين

1.4 - في العبادات.

2.4- في الحياة الاجتماعية.

3.4- في الحياة الثقافية.

ليس من السهل التستّر عند القيام بأي عمل ما، والكتمان قد لا يكون مضمون النتائج، ومن يمارس أسلوب التقية والمداراة عليه دوما التأكد من عدم اكتشاف أمره، خاصة إذا كان هذا الاكتشاف يعرّضه إلى خطر أعداء لا يرحمون. وهذا هو شأن موريسكيي غرناطة في اختيارهم لأسلوب التقية، لذا نجدهم تفنّنوا في استخدام المداراة والكتمان. وتعدّدت عندهم أساليب التقية وأصبحت الصيغة الغالبة على تصرفاتهم هي صفة التحايل. التحايل الذي معناه: إظهار ما ليس بالباطن وهذا خلافا للرياء الذي حذر الإسلام منه [371] وهو وسيلة من الوسائل التي تمارس بها التقية لكونه أضمن لحفظ السر وعدم اكتشافه وبالتالي تجنب العقوبات القاسية في حالة حدوث العكس.

وشمل هذا الأسلوب مختلف نواحي الحياة لدى الموريسكيين بدءً من الحديث أين يجب التلاعب بالألفاظ خاصة تلك المتعلقة بالقدّاس أو شتم الرسول (ص) عند الطلب، وصولا إلى الأكل

---

371 كان المسيحيون يتهمون الموريسكيين بالرياء، ولذلك كانوا ينعتونهم بأقبح الصفات، ويقدمونهم إلى محاكم التفتيش بسبب الرياء، الذي اعتبر جريمة يعاقب عليها الموريسكي، عن هذا الموضوع انظر كتاب: الموريسكيون والمسيحيون، للأستاذ كاردياك، خاصة فيما يتعلق بالمجابهة الجدلية، حيث فصل المؤلف هذا النموذج من الجدل القائم يوميا الطائفتين.

والاغتسال والصلاة والصوم وما إلى ذلك من مجالات الحياة اليومية للمسلم. فالموريسكي عمومًا أصبح يعيش حياة المداراة بصفة طبيعية في كل معاملاته اليومية، ولا يظهر عليه أيّ أثـــر للمـــداراة إلا في حالات نادرة.

وفي ظرف سنوات قليلة بعد سقوط غرناطة تحول المجتمـــع إلى مجتمع سريّ له أسلوبه الخاص في التعامل لمواجهة المدّ المسيحي، هذا الأسلوب يرتكز أساسًا على مبدأ التقية [372].

و لم يخف الموريسكيون في أدبياتهم انتهاجهم هذا الأسلوب. فأكدوا على ذلك في مختلـــف مراســـلاتهم ونـــداءاتهم المتكـــررة للاستغاثة.

ففي القصيدة المشهورة التي أرسلوها إلى السلطان بايزيـــد الثاني يصرحون بذلك [373]:

* فلما تفانت خيلنـــا و رجالنـــا و لم نر من إخواننـــا من إغاثـــة.
* و قلّت لنا الأقوات و اشتد حالنا أطعناهم بالكره خوف الفضيحة.
* و خوفا على أبنائنا و بناتنـــا من أن يؤسروا أو يقتلـــوا شرّ قتلـــة.

---

[372] رزوق: الهجرة الأندلسية. ص: 103.

[373] القصيدة كاملة، عند المقري: أزهار الرياض. ج 1. ونقلها الدكتور حنامله عبد الله كاملة في كتابه، التنصير القسري لمسلمي الأندلس. ص: 93-99. أنظرها في الملاحق.

ويحدّد الموريسكيون الدوافع التي أدّت إلى ممارسة التقية والمتمثلة في الخوف وذلك كانوا مضطرين لاتباع هذا النهج.

وهذا أحد زعماء ثورة حي البيازين (1568م) و هو محمد بن محمد بن داوود يشير إلى ذلك:" و لا حيلة لنا سوى المصانعة حتى ينقذنا الموت مما هو شر و أدهى"[374].

ولمعرفة تطبيق مبدأ التقية في حياة الموريسكيين نتتبع الحياة اليومية لهؤلاء ومدى استخدام أسلوب المداراة في كل المجالات اليومية، ونركز أكثر على العبادات باعتبارها العمود الفقري للدين، وبها يمكن قياس مدى الحفاظ على الشخصية الإسلامية بالأندلس. ثم نرى باقي المجالات الاجتماعية والعادات، ثم ممارسة أسلوب المداراة في المجال الثقافي وتفنّن الموريسكيين في ابتكار لغة جديدة "الألخمايدو " ليتمكنوا من قراءة وكتابة القرآن والأحاديث وكل ماله علاقة بدينهم الحنيف.

---

[374] - عنان : نهاية الأندلس ، ص : 363 .

4. 1 - في العبادات

إنّ الحديث عن أسلوب التقية في مجال العبادات يعني جهود الموريسكيين للحفاظ على دينهم، هذا الدين الـذي اكتسب – باعتباره أحد مقومات الوجود المميز لهم عن غيرهم – أهمية كبرى في الصراع العقائدي لكونه معقلاً يلجؤون إليه حتى لا تذوب معالم شخصيتهم في العالم الجديد [375]، هؤلاء الذين أصبحوا يعبـدون دينين في آن واحد، فهم يعبدون دين النصارى جهرا ودين المسلمين في سرية وخفاء [376]. بذلوا كل ما يملكون من جهد للحفاظ على دينهم بالاعتماد على سياسة المداراة أو المصانعة كما سمّوها، لأنهم لم يجدوا من وسيلة أخرى تسمح لهم بـالعيش في سـلام وسـط التركيبة الاجتماعية الجديدة لإسبانيا المسيحية التي حملـت علـى عاتقها مهمّة تنصير جميع المسلمين الباقين في الأندلس. ولذلك ومنذ 1502م كان من تبقّى من المسلمين الذين غلبـوا علـى أمـرهم وأرغموا على اتباع الديانة النصرانية كرهًا، يتظاهرون بقبولهم هذا الدين [377] حتى يضمنوا البقاء في ديارهم إلى الأقل. وهذا هو شأن

---

375 - Rafael Altamira : Manual de Historia de Espana - Buenas Aires 1946 - p : 40

376 – الشهاب الحجري : ناصر الدين على القوم الكافرين . ص : 3 ، 4 .

377 - Boronaty Barrachina : Los Moriscos . p :116 .

المدجّنين [378] كذلك، إذ آثر مدجنو أرغون وغرناطـــة وبلنســـية القبول بالنصرانية ظاهريا حتى يبقوا في ديارهم خوفا من فقدالها إلى الأبد على غرار الذين طردوا إلى الخارج [379].

فخلال ق.16م أصبحت تعاليم الإسلام و ممارسته لـــدى الطائفة الموريسكية تقاليد موروثة، يتوارثها الأبناء عن الآباء جـــيلاً بعد جيل. في حلقات مغلقة لها صفة المجالس السرية [380] وحافظ الجميع على هذه الممارسة إلى غاية السنوات الأخـــيرة للتواجـــد الموريسكي في الأندلس، فقد لبث المجتمع متماسكا محافظاً على دينه رغم تنصيره بالقوة، مخلصا في سرائره للدين الإسلامي. و لم تستطع الكنيسة بجهودها أن تحملهم على الولاء لدين غير ذلك الذي قاسوا في سبيل اعتناقه ضروباً من الآلام [381]، ورغم محاولات الإغـــراء التي مارستها،مثل ذلك المرسوم الملكي الذي صدر في 30 ســـبتمبر

378 - المدجنون MUDEJARES أطلقت على المسلمين قبل سقوط غرناطة ، حين أرغموا في باقي المدن على إتباع الديانة المسيحية - أي دجنوا -

379 Dominguez Ortiz : Los Cristianos Nuevos Boletin de la Universidad de Grenada 1949 / vol : 11 .

380 - Mercedes . G . Arenal : Los Moriscos . p : 25

381 - عنان : نهاية الأندلس ، ص : 342 .

1500م والذي يقضي بإعفاء الذين يقبلون بالنصرانية دينا من جميع الغرامات والضرائب[382].

وقد وصفهم أحد رجال الدين المطران جريرو عام 1565م بأنهم خضعوا للتنصير لكنهم بقوا كفارا في باطنهم، و هم يذهبون للقداس تفاديا للعقاب [383]. وقد شهد لهم حتى أعداؤهم ببقائهم على دينهم، ففي تقرير أرسل إلى شارل الخامس جاء فيه أن كــل الموريسكيين رغم المحن لم يكن بينهم من يدين بالنصـــرانية [384]. ونفس الشيء أكده أعضاء لجنة التحقيق التي شكّلها للتحقّق مـــن سير عملية التنصير في أوساط المسلمين.

إنّه من الصعب جدا على البقيّة الحيّة المجســدة لشخصـــية الحضارة العربية الإسلامية على أرض الأندلس أن تتنازل بســـهولة عن دينها و تقبل بدين جديد لا يمت بصلة إلى جذورها التاريخيـــة لأن الإسلام في الأندلس كانت جذوره ممتدة بعيـــدًا و عميقًـــا في الأرض والنفس، ومن الصعب تقطيعها فما بالك باجتثاثها [385].

---

382 - نفسه، ص : 320 .

383 - Dr : Lea : The Morish . p : 213 .

384 - Caro Barja : Los Moriscos . p 52 .

385 - ليلى الصباغ : ثورة مسلمي غرناطة . ص : 125 .

وقبل الخوض في مجال الممارسة السرية للعبادات المختلفة في الوسط الموريسكي لابد من الإشارة إلى الدور الكبير الذي لعبه الفقهاء للحفاظ على الدين الإسلامي في هذا الوسط، فبدونهم لم يكن بإمكان أحد تعلم مبادئ الدين ولا حفظ القرآن، فقد ظلّ هؤلاء طوال السنوات التي تلت سقوط غرناطة وإلى غاية صدور قرار الطرد النهائي يمارسون عدة مهن للتمويه وفي الليل يستقبلون الموريسكيين لتعليمهم القرآن [386] وتدارس تعاليم الدين الإسلامي[387]، كما كانوا يستقبلون المبعوثين من شمال إفريقيا ومعهم الكتب الضرورية لنسخها و بيعها للموريسكيين وبذلك لم تقتصر مهمتهم على التعليم فقط، فهم يقومون بإعادة نسخ الكتب القادمة لهم من المغرب الإسلامي للحصول على أكبر عدد ممكن من النسخ وتوزيعها على نطاق أوسع كما كانوا يقومون بعملية جمع الزكاة والصدقات وتوزيعها على الفقراء والمحتاجين [388] في المناسبات والحفلات التي كانوا يقيموها سرا في بيوتهم واستمر

386 – و هي التهمة التي عوقب عليها الكثير من الموريسكيين، مثل الفقيه أمادور سامبير فيلو AMADOR SAMPER VELO سنة 1593، حيث عوقب بتهمة تعليم القرآن للموريسكيين .

387 Jaqueline Fournel : Les Moresque Aragnais et L'inquisition de Sarrgosse (1540 - 1620) Montpellier 1980 - p : 129 .

388 - Ibid : p : 130 .

الفقهاء يؤطرون الموريسكيين ويعلمونهم الإسلام، ويـــدعونهم إلى المحافظة عليه والتنصّل من إتباع النصرانية، لأن الفقهاء كانوا علـــى علم بدينهم [389] ولأجل هذا حافظ الموريسكيون على فقهائهم إلى أن أتت ساعة الرحيل [390]. وقد تعدّى دور الفقهـــاء في بعـــض الأحيان تعليم الموريسكيين تعاليم دينهم إلى دعوة المســـيحيين إلى دخول الدين الإسلامي [391] حتى وهم داخل السجن [392] ومهما يكن من أمر فإن دور الفقهاء في محافظة الموريسكيين على دينهم لا ينكره أحد لأنهم يعتبرون ركائز الحياة الدينية عند المسلمين، فهـــم أعلم الناس بدينهم و أقدرهم على تلقينه لغيرهم.

إلى جانب الفقهاء يمكن الحديث في المراحل الأولى لسقوط غرناطة عن بقاء بعض المساجد الـــتي تقـــوم بـــدورها التعليمـــي والتكويني، ففي العديد من المـــدن حـــافظ الموريســـكيون علـــى مساجدهم إلى غاية 1525م [393] أين صـــدرت الأوامـــر بغلـــق

---

389 - Aznar Cardona : Expulsion Justificada . p : 49

390 و ذكروا أنهم كانوا يقومون بعملية الختان .

391 - Jaqueline . F : L es Moresque . p : 128 .

392 مثلما قام به الفقيه خيرمينو دي روخـــاس GERMINO DE ROJAS سنة 1601 م بسجن طليطلة ، إذ كان يجادل المسيحيين حول ضرورة إنقاذ أنفسهم بطاعة الله و إتباع الدين الإسلامي

393 - Cardaillac : Morisque . p : 65 .

المساجد [394] لتتحول بذلك بيوت الموريسكيين إلى مساجد سرية تمارس فيها الصلوات و يقرأ فيها القرآن، و يلتقي فيها الفقهاء بعامة الناس لتعليمهم الكتابة والقرآن باللغة العربية، ثم اللغة الألخمايدية،كلغة جديدة ابتكرها الموريسكيون في إطار سياسة التقية، وهي اللغة الإسبانية بالخط العربي ليصعب على المسيحيين فهمها انظر الباب القادم -الحياة الثقافية-.

إنّ وجود الفقهاء في المساجد يؤدي حتما إلى ممارسة شعائر الدين وفي مقدمتها الصلاة، و قبل التفصيل في موضوع الصلاة وكيفية ممارستها سرا باعتبارها عمود الدين، نرى الرفض للدين الآخر، فالموريسكي - قبل أن يصلّي- فرض عليه اتباع الدّين المسيحي و التخلي نهائيا عن دينه، فهو يفكر كيف يتحايل على التنصير المفروض، ثم ممارسة شعائر دينه الإسلامي.

---

394 - و رغم ذلك بقيت بعض المساجد سنوات طويلة بعد قرار غلقها و بعضها بقي حتى صدور قرار الطرد النهائي، مثل مسجد مدينة فيلا فيليشي VILLA FELLICHE الذي ذكر المؤرخون أنه ظل قائما إلى غاية 1609 م، ونفس الشيئ بالنسبة لمسجد بيروي PURROY و إن كنا نرى أن بقاء هذه المساجد كان في غاية السرية ، و ذلك ما نجده في اكتشاف محقق سرقسطة سنة 1574م لوجود مسجد بمدينة كلاندا CLANDA يزوره الموريسكيون سرا .

وفي هذا المجال ظلّ الموريسكيون دوما يشعرون بالحرج من الدين الجديد – النصرانية– وإذا ذهبوا إلى القداس يوم الأحد فذلك من باب مراعاة العرف والنظام [395] وليس اقتناعًا بهذا الأمر. ومن هنا أصبح البحث عن أسلوب ناجح للتخلص من هذا الحرج أمام استلزام الحضور إلى القداس تعبيرا عن قبول الدين النصراني واتقـــاء للعقوبات المنتظرة في حالة عدم الذهاب إلى الكنيسة. والذهاب إلى الكنيسة يتطلب من كل موريسكي أن يتظاهر بقبول النصـــرانية. فهو يتردد على الكنائس والأديرة ليشاهد الإسبان فقط لكنّــه في حقيقة الأمر لم يقبل بالمسيحية عن الإسلام بديلاً [396] وفي هـــذه الحالة تصبح التقية خير وسيلة لإخفاء معتقـــد وإظهـــار عكســـه، وتتعدد أساليب التحايل. فعند حضور القربان المقدس تتعمّد النساء الجلوس بطريقة غير مؤدبة و كثيرا ما كنّ يصطحبن أطفالهن الصغار ويأمروهم بالبكاء عند القربان المقدس أما الرجال فكانوا يضحكون ولا يبدون أي اهتمام ووقار يتكلمون فيما بينهم في الوقت الـــذي يجب الصمت والانتباه أكثر وإذا طلب منهم قراءة الإنجيل فإنهم لا ينطقون الكلمات سليمـــة ويختصرون الكثير من العبارات، وكثيرًا ما كانوا يغلقون بيوتهم يوم الأحد موهمين الإسبان وكأنهم ذاهبون

[395] - Marmol C arvajal : Rebellon . p : 210 .
[396] - Bronat Y B arrachina : Los Moriscos . p : 116 .

إلى الكنيسة، فالصراع إذن صراع ديني و هو أعمق صراع حضاري بين الموريسكيين و الإسبان.[397]

ونعود إلى كيفية محافظة الموريسكيين على أداء الصلوات الخمس وكذا صلوات الجمعة و العيدين في ظل المراقبة الشديدة لمحاكم التفتيش. فنجد بعد تخطّي عقبة القدّاس والذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد بالتحايل كما ذكرنا آنفا أن الموريسكيين قد حافظوا على صلواتهم ومارسوها بصيغ مختلفة إما في إطار عائلي أو بشكل جماعي وراء إمام يختارونه من بينهم،[398] مراعين في ذلك شرط حفظه للقرآن الكريم.

وممارسة الصلاة في البيت مع الأهل والأبناء، وإن كانت تتم في سرية وبحذر شديد، فهي أقل خطرا من ممارستها جماعيا في أماكن خاصة اتخذّت كمساجد في المغارات أو في أقبية البيوت، لأن تجمع العشرات - خاصة في صلاة الجمعة والعيدين- كثيرا ما كان محل شك السلطات المسيحية، وبالتالي وجب الاحتياط أكثر،

---

397 - Braudel : Conflit et Refus de Civilisation Espgnols et Morisques. p : 402 .

398 - Fournet Jaqueline : Les Morisques . p : 132 .

والتزام السرية التامة. [399] وحرص الموريسكيون على قدسية صلاة الجمعة فكانوا يتوقفون عن كل نشاط تجاري في هذا اليوم. كما كانوا يرتدون الملابس النظيفة ويستحمّون [400]. وسهّلت فتاوى الفقهاء خاصة الفتوى الشهيرة لمفتي وهران أحمد بن جمعة الوهراني التي أرسلها للموريسكيين بطلب منهم في عام 1503م في تخفيض الضغط على الموريسكيين في أداء الصلوات والمحافظة على وقتها.

فمثلا إذا تزامن وقت الصلاة مع وقت الذهاب إلى الكنيسة ولم يجد الموريسكي من حيلة للتأخر أو الامتناع عن دخول الكنيسة فإنه يعفى من أداء الصلاة، أو يضطر إلى أدائها ليلا بعد العودة من الكنيسة، وبهذه الكيفية استطاع هؤلاء القابضون على دينهم كالقابض على الجمر من المحافظة على الصلاة باعتبارها جوهر العبادة في الإسلام.

إنّ الحفاظ على الصلاة لم يمنع الموريسكيين من القيام بباقي أركان العبادة من صوم وحجّ وما إلى ذلك من شعائر الدين الإسلامي، فطيلة التواجد الموريسكي بإسبانيا المسيحية وعلى امتداد

---

[399] – هذه السرية لم تمنع الموريسكيين من إظهار تحديهم للمسيحيين بأدائهم الصلاة في السجن امام أعين الجلادين، وهم تحت التعذيب ، كما أدوها وهم في الطريق إلى ساحات الموت لحرقهم – كطريقة من طرق الإعدام –

[400] - Jacquline F : Les morisques . p : 133 .

أكثر من قرن من الزمان حافظ هؤلاء على صوم رمضان حتى أذنت ساعة الرحيل وصدر قرار الطرد النهائي، ورغم شبكة الجواسيس التي كانت تحيط بهم فإنهم لم يتخلّوا عن صوم شهر رمضان، متحدّين خطر اكتشاف أمرهم. فالصوم طول النهار لمدة شهر من شأنه أن يكشف أمر صاحبه بسهولة، عكس الصلاة التي يتطلب أداؤها بضع دقائق فقط، وأمام هذا الخطر المحدق داوم الموريسكيون على الصوم [401] واتبعوا أساليب كثيرة لضمان عدم اكتشاف أمر صومهم. فغالبا ما كانوا يغادرون بيوتهم طيلة شهر رمضان لتجنب الأكل، وحتى لا يتفطّن المسيحيون لهم على أنهم صائمون و في المساء يحضّرون فطورهم في غاية السرية [402]. كما كانوا يحرصون في هذا الشهر على الابتعاد قدر الإمكان عن المسيحيين خاصة أثناء فترات الأكل، وأحيانا يتظاهرون أمامهم بأنهم أكلوا [403] أو يدّعون أنهم تناولوا غذاءهم قبل ذلك في مكان آخر أو يتحجّجون بفقدان الشهية. و العودة إلى ملفات التفتيش تكشف عن حالات كثيرة لمحاكمات سببها تهمة الصوم. وأورد الأستاذ كاردياك في

---

401 - Ibid p : 136 .

402 - Barbara : Les Morisques du Royaume de Valence . Univ d'Alger . 1982 . p : 17 .

403 - Jacqueline . F : op.cit : p : 136 .

كتاب: "الموريسكيون والمسيحيون المواجهة الجدلية" الكثير من الأمثلة عن هذه المحاكمات.

واستمر الحفاظ على صوم شهر رمضان يتوارثها الأبناء عن الآباء وبحيطة أكبر، وتظاهر متقن، ففرنسيسكو القرطبي Francisco de Cordoba كان يصوم شهر رمضان كاملاً، وكان يواجه الدعوات التي تعرض عليه في هذا الشهر بحيلة وذكاء كبيرين، فإذا دعي إلى تناول الغذاء فإنه يعتذر بحجة أنه فاقد للشهية، وإذا دعي مرة أخرى يرّد أنه تناول طعامه قبل ذلك في مكان آخر[404]، وبهذه الطريقة الذكية كان فرنسيسكو يتخطى الوقوع في مطبّة اكتشاف صيامه وبالتالي العقوبة المؤكدة.

وفرنسيسكو القرطبي نموذج للفرد الموريسكي الحريص على أداء شعائر دينه، الصامد أمام حملة التنصير التي تشنّها ضده الكنيسة الكاثوليكية. وعلى هذا المنوال حافظ الموريسكيون على صيام شهر رمضان حتى السنوات الأخيرة للطرد، إذْ شهد المسيحيون العاملون في معصرة الزيتون بقرية البالات Albalate عام 1607م أن جميع موريسكيي القرية يصومون شهر رمضان[405]، وسكان

---

404 Cardaillac : Morique . p : 25 .

– نقلا عن الأرشيف التاريخي الإسباني A H N . الملف . 192 رقم : 04 .

405 - Jaqueline F : Op cit : p : 136 .

هارناشوس كانوا يستغلون عملـــهم في الحقـــول لصـــوم شـــهر رمضان[406].

ركن آخر من أركان الإسلام حاول الموريسكيون الحفـــاظ عليه رغم صعوبة آدائه، وهو الحجّ إلى بيت الله الحرام. فالحج كما هو معلوم في الدين الإسلامي فرض على من استطاع إليه ســـبيلا والاستطاعة معرّفة بالاستطاعة البدنية والمالية، وما إلى ذلك، مثل: أمن الطريق، وبالنظر إلى الظروف التي كان يعيشها الموريسكيون لم تكن تسمح لهم بأداء فريضة الحج. فالانتقال من إسبانيا إلى غايـــة الحجاز لم يكن في متناول الجميع، خاصة وأن المراقبة كانت شديدة على تحركات الموريسكيين، ثمّ إنّ الكثير منهم فقد ثرواتـــه بعـــد مصادرة المسيحيين لها. ورغم ذلك نجد بعض الموريسكيين قد أدوا فريضة الحج مثل: بويز منسون Puez monsoon الذي زار البقاع المقدسة، وكتب قصيدة طويلة في هـــذا الشـــأن، هـــذه بعـــض الأبيات[407] منها:

---

406 - Sanchez Perez : Los Moriscos . p : 34 .

– و هذه هي الطريقة المتبعة عند غالبية الموريسكيين ، أي اختيار أماكن العمل البعيدة عن المسيحيين خلال شهر رمضان ، ليضمنوا سرية صيامهم و بالتالي اتقاء العقوبة .

407 قصة حج هذا الموريسكي و القصيدة الـــتي كتبـــها نقلـــها، **Pano Y Ruata** تحت عنـــوان : **las Caplas Del Perigrino de Puez Moncon Viaja a la Meca en El Siglo 16 Zaragoza 1897**

* لقد سافرت بفرح.
* بعيدا عن أهلي.
* للانتقال إلى أرض العرب.
* لإكمال فريضة الحج.
* و هي تغسل كل أثام.
* من يقوم بهذه الرحلة...

إلى آخر القصيدة التي كتبها هذا الموريسكي الحاج للتعبير عن فرحته أولاً بأدائه فريضة من فرائض الإسلام، ولإظهار منافع هذا السفر الإيماني لبني قومه الباقين في أرض غير أرض الإسلام.

وخلاصة الحديث عن ممارسة التقية في العبادات من طرف الموريسكيين نورد وصف أحد رجال الدين وهو: المطران جريرو الذي ذكر سنة 1565م أن الموريسكيين خضعوا للتنصير لكنهم بقوا كفارًا في باطنهم وهم يقصدون القداس خوفًا من العقاب ويشتغلون خفية أيام الأعياد، ويحتفلون بيوم الجمعة، ويحافظون على الاستحمام حتّى في شهر ديسمبر، ويؤدون الصلاة في السرية [408].

---

[408] - Dr .Lea : The Moorish . p : 213 .

2.4 – في الحياة الاجتماعية:

الغوص في أعماق يوميات موريسكيي الأندلس يكشف لنا عن حياة غنيّة بالصور التي تبيّن حرص هاته الطبقة على البقاء على دين محمد (ص)، والحياة الاجتماعية حبلى بمظاهر التستّر والكتمان، لأنها تمثل كل تحركات الموريسكي داخل البيت، الأكل اللباس، العادات الاجتماعية،الختان، الزواج... وغيرها من الممارسات اليومية في المجتمع الأندلسي.

ومن خلال الظروف الصعبة التي آلت إليها البلاد بعد سقوطها بين أيدي الإسبان أصبح الموريسكي يعيش حياة التستّر والكتمان بصفة عادية و طبيعية و ليست ظرفية، بل كل تصرّفاته وتحرّكاته – ما دام بأرض المسيحيين – هي مداراة، وقد يولد هذا الأسلوب والنمط المعيشي – المداراة – مع الطفل الذي عليه أن يتعلم أسلوب الكتمان من المهد إلى اللّحد تجنبًا للطرد، فمنذ الولادة يبدأ الطفل في التخلص من التعميد أو يُأخذ مكان غيره، وحتّى وفاته يدفن على الطريقة الإسلامية بالسرّية و التحايل. وسنحاول تتبع الحياة اليومية للموريسكيين لاكتشاف ذلك الأسلوب الجديد والإطار المنظم ليوميات هؤلاء القابضين على دينهم كالقابض على الجمر.

فأسلوب المداراة يولد مع الطفل الموريسكي، هذا الصبي الذي أجبرته السياسة التسلطية للكنيسة الكاثوليكية على الذهاب إلى الكنيسة للتعميد[409] مباشرة بعد ولادته جعلت عائلته تبحث عن الطريقة المناسبة للتخلص من آثار هذا التعميد الذي تراه منافيًا لتعاليم الدين الإسلامي. فبمجرد العودة من الكنيسة يتم غسل الصبي لإزالة آثار الصليب عنه [410]. وهذه الطريقة هي المتبعة عند أغلبية الأسر الموريسكية، وبعد غسل آثار التعميد يطلق على الطفل اسمًا عربيًا، ينادى به وسط أهله إلى جانب الاسم المسيحي المسجل رسميا لأنه حرّم على الموريسكيين الأسماء العربية، وهذا هو حال الموريسكية ماريا جار كينا Maria Jar quina بعد عودتها مباشرة من الكنيسة، حيث قامت بترع أدباش طفلها و غسلته بالماء الساخن، وأطلقت عليه اسما عربيًا بحضور أصدقائها الموريسكيين [411]. وغالبًا ما كان الموريسكيون يقيمون حفلات خاصة بالمولود الجديد على الطريقة الإسلامية، مثلما نجده عند الموريسكي لوب قريرو Lop Guerrero سنة 1570م الذي أقام

---

409 – من الإجراءات المتخذة ضد الموريسكيين ، ضرورة تعميد الأطفال عند ولادتهم، ومن يخالف هذا الأمر يتعرض إلى عقوبات شديدة .

410 - Carvajal . M : Rebellon . p : 128 .

411 - Boronat Y Barrachina : Los . Moriscos . p 252 .

حفلاً ببيته بمناسبة ازدياد طفل لديه ودعا جيرانه الموريسكيين لحضور الاحتفال وتسمية المولود باسم مسلم، هذا مع قيام الحاضرين بقراءة بعض الأدعية باللغة العربية [412].

إن النظر في مثل هذه الحالات يكشف لنا مدى محافظة الموريسكيين على أسلوب التقية الذي يظهر في الاغتسال بعد العودة من التعميد، و إعطاء الاسم المسلم كاسم ثاني وسط الأهل فقط لكن هناك حالات من المداراة أكثر من هاته، ومع مرور الوقت أصبح الموريسكيون لا يأخذون المولود الجديد إلى الكنيسة للتّعميد بل يأخذون مكانه مولودًا آخر سبق تعميده مرات كثيرة [413] حتى يتجنبوا تعميد الأطفال الجدد، وذكر المؤرخون أن أطفالاً موريسكيين عُمّدوا عشرات المرات في مكان عشرات المواليد الجدد إضافة إلى عملية الختان التي حافظت عليها الأسر الموريسكية رغم خطر اكتشافها من طرف محاكم التفتيش.

---

412 - Cardaillac : Moriques . p : 36 .

413 Boronat Y B : Op cit . p : 253 .

- نجد حالات كثيرة لمثل هذا العمل ذكرها، كاردياك لوي، ومارمول كارفاخال، ولونقاس وغيرهم من المؤرخين .

وفي هذا الإطار يظهر لنا الدور الكبير الذي لعبته المرأة الموريسكية [414] في المحافظة على تعاليم الدين الإسلامي [415] وتعليم أبنائها دين أجدادهم، وإصرارها على مواجهة محاولات التنصير الإجباري. خاصّة في صفوف الأطفال الذين عرفوا معاملة خاصة وسط المجتمع الموريسكي لتنشئتهم على دين محمد (ص).

وحفاظًا على نجاح أسلوب المداراة اعتمدت العائلة الموريسكية على الاحتياط والسرية في تلقين أبنائها نظرًا لصغر السن وإمكانية إخفاء أي أمر يعرض العائلة بأكملها إلى خطر محاكم التفتيش. خاصة طبيعة السكن – مجاورة المسيحيين – التي كانت تؤدي في كثير من الأحيان إلى الوشاية وانتشار حرفة الجوسسة وسط المسيحيين [416] وأورد صاحب كتاب: الأنوار النبوية في أبناء خير البرية [417] أن أباه أوصاه بالكتمان حتى على أمّه وعمّه،

---

[414] – أنظر مقالنا تحت عنوان : دور المرأة الموريسكية في مواجهة التنصير القسري بالأندلس – ضمن أعمال المؤتمر العالمي الخامس حول العائلة الموريسكية " النساء والأطفال " – تونس 1995 .

[415] - Mercedes Garcia Arenal : Los Moriscos . p : 25 .

[416] – نقل الأستاذ : كاردياك – الموريسكيون و المسيحيون – عدة حالات من الوشاية التي قام بها المسيحيون ضد جيرانهم الموريسكيين.

خير البرية [417] أن أباه أوصاه بالكتمان حتى على أمّـــه وعمّـــه، وكان أبوه يختبره فيأمر أمه أن تسأله فينكر[418].

وفي حالات كثيرة تعمّد الموريسكيون التـــأخّر في تعلـــيم أبنائهم التربية الدينية حتى يكبروا ويصبحوا قادرين علـــى التســـتّر وحفظ الأسرار و بالتالي يتعلمون قانون الصمت.

وعلى هذا المنوال رسم الموريسكيون لأنفسهم نمطًا معينًا من الحياة طبيعته التستر في كل شـــيء، حـــتى في اللبـــاس والأكـــل والاستحمام. خاصة بعد أن أصبحت هذه الأمور من التهم الـــتي يجـــب التبليـــغ عنـــها فـــالمفتش الخـــامس ألفنســـو مانريـــك

---

417 – مؤلفه هو محمد بن عبد الرفيع الأندلسي، المتوفى سنة 1652، بعد النفي بـــ42 سنة. توجد نسخة منه في مكتبة الرباط تحت رقم 1238، وكتـــب بتـــونس عـــام 1644 م، به فصل خاص بأحوال الموريسكيين، نقل هذا الفصل بتصـــرف الشـــاعر المغربي محمد بوجندار، في كتابه مقدمة الفتح في تاريخ رباط الفتح (ص 200-214).

418 – وكان هذا الأمر في مرحلة معينة من السن، لأنه بعد ذلك سمح له بإخبار أمـــه وعمه و بعض أصحابه.

Alfonso Monrique وقّع على نشرة بها 36 قمة يجب التبليــغ عنها [419].

وفي مجال الأكل حرص الموريسكيون على عــدم تنــاول الأطعمة المحرمة، و شددوا كثيرًا في مراقبة أطفالهم و مــنعهم مــن تناول أي طعام محرّم في الشريعة الإسلامية. فكان الامتنــاع عــن شرب الخمر عامًّا، وأكل لحم الختزير محرّمًا، فحسب المؤرخ لونقا في كتاب: "الحياة الدينية عند الموريســكيين"، أن الموريســكيين لا يعترفون بالواجبات الدينية النصرانية، و لا يأكلون لحم الخنــزير ولا يشربون الخمر، ولا يعملون أمرًا من أمور النصارى. [420] كما امتنع المورسكيون عن أكل لحم الــدواجن و الحيوانــات غــير المذبوحة، ولذلك كانت لهم قصابتهم الخاصة، التي يذبح أصحابها الذبائح على الطريقة الإسلامية، غير أن تجنب أكل المحرمات لم يكن بالأمر الهيّن عند الموريسكيين الذين أصبحوا يعيشــون في وســط مسيحي، والجيران الإسبان المسيحيون يحيطون بهــم مــن كــل

---

[419] - من بين هذه التهم نجد : إذا ذبحوا الدواجن و الحيوانات - إذا رفضوا أكل الحيوانات غير المذبوحة - إذا قاموا بصيام رمضان - إذا احتفلوا بعيد الأضحى - إذا غنوا الغاني العربية ...إلخ انظر مجمل هذه التهم في الملاحق .

[420] - Longas .p : Vida Velegiosa de Los Moriscos , Madrid 1915 . p : 68 .

الجهـــات والأبواب تبقى مفتوحة طوال النهار [421] ولأجل اتقاء شرّ الوشاية المسلّطة على العائلات الموريســكية، وجــب علــى الموريسكيين التستّر في مأكلهم، واتباع أسلوب المداراة بطرق ذكيّة و متعدّدة كأن يقوموا بغرس العنب للتظاهر بأنهم يشربون الخمــر [422] وكثيرة هي العائلات الموريسكية التي كانت تملــك مــزارع العنب للتظاهر بأنها عائلية مسيحية طيبة، وكثيرٌ هم الموريســكيون الذين عوقبوا بهذه التهمة [423].

إنّ عملية التحايل هذه شملت كل المــأكولات المحرّمــة و لم تقتصر على زراعة العنب فقط، إذ كان الموريسكيون يتظــاهرون بشراء لحم الخنزير، لكنهم عندما يحضرونه إلى البيت يرمونــه ولا يأكلونه إطلاقًا [424]، وإذا حدث وأن استدعي موريسكي إلى بيت

---

421 – من بين القرارات التي أصدرها الملكان للتضييق على الموريسكيين إبقاء الأبواب مفتوحة نهارا حتى تتسنى عملية المراقبة و التجسس من طرف الجيران المسيحيين .

422 - Cardiallac : Morisques . p : 24 .

423 مثل الموريسكي خوان هيرادو الذي قدم إلى محاكم التفتيش بتهمة النفاق، فهــو يزرع العنب ليوهم الإسبان بأنه سيخدم ذلك في صناعة الخمر، لكنه في حقيقة المــر لايتناول الخمر ويحرمها على نفسه .

424 وفي حالات كثيرة كان يحتم على الموريسكيين تحت الضغط تنــاول الأطعمــة المحرمة، وفي هذه الحالة بمجرد عودتهم إلى البيت يقوم الموريسكي يوضع إصبعه في فمه ليتقيأ ما أكله من محرمات .

جيرانه المسيحيين وطلبوا منهم تناول الطعام، وشك في وجود لحم الخنزير أو اللحم المذبوح فإنه يتظاهر بفقدان الشهية أو تناوله طعاما قبل حضوره، أو يتظاهر بأنه شبعان حتى لا يثير الشكوك حوله [425] كما كانوا يرفضون شراء اللحم من المحلات التي يملكها الإسبان لأنهم يعرفون مسبقًا أنها لم تذبح على الطريقة الإسلامية، و يرفضون أيضا الحيوانات المذبوحة من طرف النساء [426].

وحرص الموريسكيون على تدريب أطفالهم على تناول الأطعمة الحلال، وتجنب الأطعمة المحرمة، وكانوا يبالغون في مراقبتهم للتأكد من مدى استجابتهم لأوامر الأولياء، مثل حالة: الموريسكي **فالا نوناز** vala nunez الذي كان يشمّ فم أطفاله ليتأكد إن تناولوا لحم الخنزير أو شربوا الخمر. وفي المقابل كانت العائلات الموريسكية تحافظ على إعداد الأطعمة العربية خاصة الكسكسى للتمسك بعادات وتقاليد الأجداد.

والمداراة أيضا في اللباس لأن الموريسكيين حرّمت عليهم الملابس العربية الإسلامية بموجب مرسوم ملكي أمضاه الملكان

---

[425] – لكن في هذه الحالة لا ينجو من التهمة، فالمحقق لايترك أي حجة إلا و تمسك بها، وكثيرا ما عاقب أشخاصا لمجرد الشك فقط.

[426] كارديك، نقلا عن الأرشيف التاريخي الإسباني A.H.N الملف : 198، ص : 16

الكاثوليكيان، ولذلك كان عليهم إيجاد الحيل المناسبة للمحافظة على الملابس الإسلامية خاصّة في أوساط النساء اللّواتي منعن من ارتداء الحجاب باعتباره يرمز إلى الدين الإسلامي ولذلك أصبحن يتحايلن بارتداء المعاطف الطويلة ويضعن القبعات لستر شعرهن [427] أمّا الرجال فكانوا أكثر حظّا باعتبار الشريعة الإسلامية حدّدت لباس الرجل ستر العورة فقط. غير أنهم كانوا يقعون في حرج يوم الجمعة لاختيارهم اللباس الأبيض و النظيف مثلما جرت عليه عادات المسلمين. [428] وهم محرّم عليهم لبس الأبيض يوم الجمعة، كما حافظ الموريسكيون على عادات الزواج حسب التقاليد الإسلامية، فإذا تزوج أحدهم وذهب إلى الكنيسة وأجرى له القسّيس عقد الإكليل على الطريقة المسيحية، عاد إلى البيت مباشرة وتخلص من كل آثار الطقوس المسيحية. وعقد النكاح على الطريقة الإسلامية [429] وسط الأهل والأقارب و بطريقة سرية.

---

427 - شكيب أرسلان : خلاصة تاريخ الأندلس - بيروت 1930 - ص : 358 .

428 - باعتبار الجمعة عيدا للمسلمين وقد رويت أحاديث كثيرة عن الرسول (ص) في فضل يوم الجمعة .

429 - شكيب أرسلان : نفس المرجع . ص : 296 .

وكان الزواج يتم وفق التقاليد الإسلامية في مراحله الأولى: الخطبة، الفاتحة، لأنها مهمة سهلة تتطلب حضور أهـــل العريســـين بطريقة لا تثير الشك. وعندما يحين وقت الزفـــاف، يحـــتّم علــــى العريسين الذهاب إلى الكنيسة لعقد القران وفق تعاليم الكنيسة أمام القسيس، لذا أصبح على الموريسكي بعد عودتـــه مـــن الكنيســـة ضرورة عقد القران ثانية على الطريقة الإسلامية.

والحديث عن الزواج يجرّنا حتى إلى الحديث عن المشـــرفين على عملية الزواج وفق الطريقة الإسلامية، ألا وهـــم القضـــاة. إذ حافظ الموريسكيون على وظيفة القاضي حتّى صدور قرار الطـــرد النهائي، وكانوا يسمون: Los alcadis وهـــم رجـــال القـــانون المسلمين حسب تعبير ليفي بروفنسال [430]، وكان القاضي يمثـــل الصورة الحسنة للمسلم، وكانت مهمتهم الفتوى وفـــق المـــذهب المالكي [431] ويشرفون على القضايا التي تتعلق بالحياة الاجتماعيـــة للمسلم، كالطلاق و الزواج والإدارة والعقود المختلفة. فهم يمثلون العقيدة المحمدية في أجلى معانيها [432] ولا يتناولون مرتبا خاصا بل يعيشون بإمكانياتهم الخاصة وهم يختلفون على الأرستقراطيين الذين

---

430 - Levi . Provensel : Hist. de L'espagne Musulmane t : 3 : p : 122 .

431 - Ibid : p ; 123 .

432 - Barbara : Morisques du Royaume de Valence p : 12 .

يتدرجون في الوراثة أبا عن جدٍّ [433].لأجل ذلك كان القاضـــي شخصية تحظى باحترام كبير في المجتمع الموريسكي [434].

. وعادة ما يقترن الزواج بإقامة الحفلات وإقامة الأعراس وفق التقاليد العربية الإسلامية، لذا نجد إقامة الحفلات المختلفـــة مـــن عادات الموريسكيين التي دأبوا على تنظيمها كلما سنحت الفرصة، لكونها من الخيوط التي تتشبث بها الأسر الموريسكية للبقـــاء علـــى اتصال بالعادات العربية الإسلامية، وكثيرا ما كانـــت العـــائلات الموريسكية تقيم حفلاتها ليلاً [435] على أنغام الموسيقى العربيـــة، فتعزف مقاطع لزرياب، وتغنى الأغاني العربية، وتقـــدم الأطعمـــة العربية أيضًا و في مقدمتها الكسكســـى [436] رمـــز الانتمـــاء إلى عادات الأجداد، وتنوعت المناسبات التي يتم الاحتفال بها فبالإضافة

---

433 Caro baroja : Los MORISCOS . P : 109 .

434 – إلى جانب القضاة هناك الفقهاء الذين كانوا يشرفون علـــى تعلـــيم الأطفال القرآن الكريم، ويصدرون الفتاوي العامة و كانوا يلقبون بالأســـتاذ أو المعلم " EL . Maetro " .

435 – خاصة بعد صدور قرارات و توصيات تجبر الموريسكيين على تـــرك أبـــواب المنازل مفتوحة نهارا، و خاصة في المناسبات و الأعياد ، مثل الأوامر الصـــادرة عـــام 1566 في عهد فيليب II و التي جاءت لتدعم الإجراءات المتخذة في هـــذا الشـــأن عام 19526 م .

436 - Cardiallac : Morisques . p : 35 .

إلى حفلات الختان والزواج، كانوا يحتفلون بالأعياد الدينية، كالعيد الصغير(3 أيام) والعيد الكبير، عيد الأضحى وعاشوراء (10 محرم). وحافظوا عل الاحتفال بهذه الأعياد في سرية تامة [437] إلى غاية طردهم نهائيًا من إسبانيا حسب المؤرخ أزنار كاردونا Aznar Cardona في كتابه:الطرد القانوني للموريسكيين.

إنّ الظروف الجديدة التي هيأتها العائلات الموريسكية وتتّبعتها في المحافظة على صور العيش وفق التقاليد العربية الإسلامية جعلتها تنسى على الأقل في فترات معينة ضروب التسلط والإهانة والإحساس بالغربة والانقطاع عن الأصول و بالتالي العيش ولو على أمل الانتماء إلى دين محمد، والانتعاش بتلك اللذة عند ممارسة طقوس الإسلام سرًّا، بعيدًا عن أعين مراقبي دواوين التفتيش فالسريّة عبادة جديدة تعلّمها الموريسكيون لمواجهة أعداء مسيحيين لا يرحمون. هذه العبادة التي رأيناها تبدأ مع الطفل منذ ميلاده، ولا تفارقه طوال حياته، بل تبقى معه إلى غاية وفاته.

---

437 – لم تكن إجراءات السرية ناجحة دوما ، فكثيرا ما القي القبض على موريسكيين يقيمون حفلات على الطريقة الإسلامية ، و هذا ما وقع للموريسكي خوان دي بورقوس " Juan de Borgos " الذي قدم إلى محكمة طليطلة .

فإجراءات الدّفن كانت تتم وفق التقاليد الإسلامية بتحايل كبير، لأنّ عيون الكنيسة لا تنام. ودفن موريسكي دون مراسيم كنسية يحضرها القسّ يعني تهمة خطيرة تعاقب عليها العائلة [438].

واتقاءً لهذا الخطر المحدق كان الموريسكيون قبل دعوة القسّ يقومون بتغسيل الميت بماء عطر، مثل ماء الزهر أو الرند، مثلما هو متبع عند المسلمين، ويلبسونه أجمل اللباس (الكفن) ويدّعون أن ذلك من باب العادة وليس العبادة.

أمّا حفر القبور فكان الموريسكيون يحرسون على عدم اختلاط قبورهم بقبور النصارى وأكثر من ذلك، يرفضون أن تختلط جثثهم بأرض غير طاهرة. مما دفعهم إلى البحث في الغالب عن أرض بكر وإذا تعذر ذلك فإنهم يطلبون من حفاري القبور أن يحفروا على أعماق بعيدة دون الإفصاح عن السبب، بل يتظاهرون بنوعية التربة الهشة. وثبت أن جل موريسكيي المدن كانوا يدفنون موتاهم على الطريقة الإسلامية، ومنهم سكان **هورناتشوس** [439] ودائما عن طريق المداراة. فالموريسكي **ديقو دي لاس كاساس** Diego de Las casas كان يطلب من حفار القبور أن يحفر على

---

438 – و في حالات كثيرة لم يسلم الموتى من العقاب إذ يعاقب الميت بإخراج جثته وحرقها أمام الملأ .

439 - Sanchez . Andrez . p . : Los Moriscos . p : 34 .

أعماق بعيدة و إلاّ لا يدفع لهم أجرهم، بحجة أن عاداقم توجب ذلك. وشكل القبور كان يراعى فيه النمط الإسلامي المعروف فغالبية الموريسكيين يحفرون قبورهم على الطريقة الإسلامية [440].

إن الدارس لتاريخ الموريسكيين بعد سقوط غرناطة يجد نفسه أمام صور من الاستماتة والإصرار الكبير من طرف هذه الفئة الموريسكية المستضعفة في الحفاظ على مقومات شخصيتها بشتى الوسائل، ومهما كلفها الثمن، إنّه صراع من أجل البقاء على دين الأجداد قدر الإمكان.

وفي ختام الحديث عن ممارسة أسلوب التقية في الحياة الاجتماعية لدى الموريسكيين نُورد شهادة مؤرخ إسباني عاصر الأحداث، إنه المؤرخ: مارمول كارفا خال [441]، الذي صوّر لنا حياة المداراة التي يعيشها الموريسكي في شتى مجالات الحياة: "إذا ذهبوا إلى القدّاس يوم الأحد فذلك مراعاة للعرف فقط، و يوم الجمعة يستحمون خفية، ويصلّون الجمعة في منازلهم الموصدة ويطلقون على أطفالهم أسماء عربية، و عند الزواج و بمجرّد عودة

---

[440] وهي التهمة التي توبعت بها الموريسكية إيزابيل بيريز " Isabel Perez " التي أمرت بحفر القبر على الطريقة الإسلامية .

[441] - Marmol Carvajal : Rebellon . p : 110 .

العروس من الكنيسة تنزع الملابس النصرانية و ترتدي ثيابا عربية... الخ".

إنّها صورة حيّة للتحدي الذي عاشـــه الموريســـكيون في مواجهة الأساليب الغاشمة للكنيسة الكاثوليكية طوال أكثر من قرن من الزمان. فإذا كان الحديث الشريف يفرض على المسلمين: طلب العلم من المهد إلى اللحد، فإن الظروف المعيشـــية للموريســـكيين فرضت عليهم: طلب التقيّة من المهد إلى اللّحد.

3.4 – في الحياة الثقافية:

إذا عرفنا في الفصول السّابقة حدّة الصراع القائم بين طائفة الموريسكيين التي تسعى جاهدة إلى المحافظة على تعاليم دينها مستعملة بذلك كل الوسائل المتاحة، وبين طائفة المسيحيين بزعامة الكنيسة الكاثوليكية التي تبذل قصارى جهودها لإبعاد الطائفة الأولى عن دينها وإدخالها في دين جديد مبيحة لنفسها استخدام كل الوسائل بما في ذلك تلك التي حرمتها الشرائع السماوية والأعراف والقوانين الدولية منذ القدم.

وبما أنّ الصراع في جوهره هو صراع عقائدي بين دينين مختلفين عاشا جنبًا إلى جنبٍ قرونا من الزمن على أرض الأندلس فإن ركائز الحياة الثقافية من لغة وتعليم وتأليف تكون محور هذا الصراع. فالموريسكي الصامد لا يمكنه أن يرتبط بدينه من دون تعلّم تعاليم هذا الدين، وقراءة القرآن والفقه، والتعلم يعني تعلم اللغة العربية، لأن جدلية الارتباط بين العربية والإسلام وتشكلهما هي ثنائية يصعب الفصل بينها [442]، كما أنّ قراءة القرآن والفقه يتطلب وجود فقهاء ملمّين بتعاليم الإسلام واللغة العربية في آن

[442] – حمادي : الموريسكيون، ص : 39 .

واحد وهم مدعوون إلى كتابة أفكارهم وتوزيعها على عامة الموريسكيين ليتسنّى للجميع الإطلاع على مبادئ الإسلام. لذا اكتسبت الحياة الثقافية أهمية خاصة في الوسط الموريسكي، ولم تخل هي الأخرى من اتباع أسلوب التقية والمداراة خاصة وأن الكنيسة الكاثوليكية أدركت منذ البداية خطر التعلم على سياسة التنصير القسري التي انتهجتها وعوّلت عليها كثيرًا في محو آثار الديانة المحمدية من أرض الأندلس.

فمنذ اللحظات الأولى لسقوط غرناطة، أدرك رجال الكنيسة خطر بقاء اللغة العربية، فرفعوا شعارات التحذير، ودقوا ناقوس الخطر، فالدكتور ستيفان Estevan [443] صرخ عاليا:" احذروا، إنها العربية، فرصتهم الوحيدة لتشكيل الخطر ضدّنا "[444]. لذلك فلا نستغرب صدور القرار الملكي ثلاث سنوات بعد سقوط غرناطة "1995" لتحريم التخاطب باللغة العربية باعتبارها المانع

---

443 – الدكتور إستيفان واحد من كبار الأساقفة الذين صبوا جام غضبهم على اللغة العربية ووصفوها بالخطر الذي يهدد وحدة إسبانيا النصرانية، ويشاطره الرأي كذلك الأسقف دون فيليشيا نو فيقيرا Don Felciano Figuera والراهب سيباستيان دي إنثيناس S . DE . Encinas والراهب نيكولاس دي ريو N . DE . R io .

444 - Boronat : Los Moriscos . p : 652 .

الوحيد لاتباع النصرانية [445]. لقد اقتنعت الكنيسة الكاثوليكية أن بقاء اللغة العربية في الأندلس يمنع تغلغل النصرانية في نفوس الموريسكيين، وأنه يجب القضاء على ذلك الحاجز الصخري الذي تتحطم عليه جهود الكنيسة [446]. وتحركت جيوش الوشاة لتترقب تحركات الموريسكيين و تبلّغ عن كل من يتكلم باللغة العربية، أو يكتب بها، أو لديه كتاب مكتوب بلغة القرآن. إذ احتلت تهمة حيازة الكتب الصدارة من مجمل التهم المبلغ عنها ضد الموريسكيين، فمن بين 900 حالة باراغون، 400 متّهمين بحيازة الكتب [447]. وتواصلت القرارات و المراسيم الملكية التي تحرّم استعمال اللغة العربية، ومن ذلك بمجموعة الأوامر الصادرة سنة 1526م و1566م [448] والتي شدّدت – إلى جانب منع اللغة – على منع تداول الكتب العربية.

---

445 - Ibid . p : 651 .

446 – عنان : نهاية الأندلس . ص : 318 .

447 -Jacqueline . F . G : Les Moresques Aragonais . p : 155 .

448 – تضمنت هذه الأوامر منع استعمال اللغة العربية، و لايسمح تسجيل العقود بها وكل معاملة تمت بها تعتبر باطلة، ومنحت للموريسكيين مهلة 03 سنوات لتعلم اللغة القشتالية .

وإذا كنّا قد رأينا في الفصل الثاني من الباب الأول سلسلة النصائح التي كان يسد يها الباباوات للملوك الكاثوليكيين والعكس، لاقتلاع الديانة المحمدية، فإننا في الجانب الثقافي نجد أنفسنا أمام وصايا مماثلة لاجتثاث اللغة العربية باعتبارها أداة من مقومات الشخصية الموريسكية الإسلامية. فالأسقف فيقيرا ينصح الملك فيليب2 بنشر الكتب القشتالية وسط الموريسكيين، والراهب نيكولاس يوصي بحرق الكتب العربية، و الأسقف دون خورخي يلح على تعليم الأطفال الصغار اللغة القشتالية والبلنسية حتى ينسوا اللغة العربية نهائيًا. ومن هذا المنطلق أصبح كل أب مذنب ومتهم لأنه تأخر في تعليم أبنائه ما تقدمه المدارس المسيحية، وكل فقيه محل شبهة ومتابعة مستمرة [449]. والقضاء على اللغة العربية لا يمكن أن يتم إلا بمنع تعليمها أولا، وتحريم الكتب العربية ثانيًا، ولأجل ذلك كانت القرارات والمراسيم تشدّد هي الأخرى على منع تداول الكتب والوثائق العربية. [450] وهكذا نرى أنه باسم قداسة الكنيسة

---

449 – حمادي : الموريسكيون . ص : 40 .

450 – بلغ من مغالاة محاكم التفتيش أن صادرت كل وثيقة مكتوبة باللغة العربية حتى عقود الزواج والبيع والشراء ظنا منها أنها القرآن، و هذا ما وقع في الجزائر عشية الاحتلال الفرنسي للقصبة، إذ أحرق الجنود كل وثيقة مكتوبة بالعربية لاعتقادهم أنها قرآن .

راعية الدين، تحوّل امتلاك الكتاب إلى جريمة كبرى يستحق صاحبها عقابا مماثلا لجريمته والذي لا يخرج عن حبل المشنقة أو الحرق بالنار[451]، فالمواجهة كانت عنيدة شاملة، مواجهة بين المسجد و الكنيسة، بين التعميد والصلاة، بين وضع الإكليل المقدس على رأس العروس وقراءة الفاتحة على الطريقة الإسلامية بين لغة القرآن ولغة المدارس المسيحية، بين الكتاب المقدس (الإنجيل) والكتاب العربي (القرآن).

إنّ حدّة الصراع في الحياة الثقافية لم تكن أقل منها في الجانب الاجتماعي، ومثلما تحدى المجتمع الموريسكي صيغ التعميد المفروضة، وحافظ على عادات وتقاليد أجداده. فهو أيضا أبدع في ممارسة ثقافة خاصة به، معتمدا أسلوب التقية كما في باقي شؤون حياته، وبذلك تحوّلت الثقافة إلى ثقافة الكلّ ضمن السياق الموريسكي[452].

وكما انتشرت المساجد السرية في أقبية البيوت وفي المغارات والجبال، انتشرت المدارس في بيوت سرية وبعيدة في الحقول لتعليم الأطفال الموريسكيين اللغة العربية، الوجاء الوحيد ضد حملات

---

451 - Cardaillac : Morisque . p : 56 .

452 – حمادي : الموريسكيون . ص : 115 .

التنصير، والسبيل الأوحد لقراءة القرآن والمحافظة على دين محمد (ص). وكثرت الرحلات الدراسية بين المدن خفية فموريسكيو راغون كانوا ينتقلون إلى فالنسيا لتعلم اللغة العربية[453] لكون موريسكيي فالنسيا وغرناطة امتازوا بمحافظتهم على اللغة العربية أكثر من غيرهم من سكان المقاطعات[454] وخاصة موريسكيو فالنسيا الذين عرفوا تواجد عدد كبير من الفقهاء والقضاة بينهم[455] ممّا سمح لهم بالإطلاع أكثر على تعاليم الإسلام وبالتالي عقد جلسات تعليمية سرية في البيوت، ونشر الكتب الدينية، وقصص الفروسية، والتراث الإسلامي، كما سنستعرض ذلك عند الحديث عن أنواع الكتابات التي تركها الموريسكيون.

إن مقولة جمال الدين الأفغاني:" **الأزمة تولد الهمّة** " تجسّدت على أرض الواقع عند الموريسكيين الذين أصبح شغلهم الشاغل هو الحفاظ على اللغة العربية و تعاليم الإسلام، وقراءة التاريخ الإسلامي وكتب الفقه والسيرة النبوية، وتحوّل المجتمع كله إلى مجتمع متمدرس بحكم السرية، فالتعلم في أقبية البيوت يسمح لجميع أفراد العائلة بالأخذ ممّا يعطى من دروس، وحرص الآباء على

---

453 - Caro Baroja : Los Moriscos . p : 120.

454 - Barbara : La Communauté Mauresque . p : 23 .

455 - Regla Juan : Estudios Sobre Los Moriscos Valencia 1964 . p : 143.

تعليم أبنائهم من التعليم مهنة وراثية لا يتنازل عنها أحد، فالكل مسؤول عن تعليم أسرته. فالتعلم في هذه المرحلة لا يعني الحصول على وظيفة، أو التباهي بين الآخرين، وإنما يعني البقاء على دين الأجداد، ولهذا تحول من فرض إلى واجب مقدس لدى العائلات الموريسكية.

إنّ المحافظة على الثقافة العربية الإسلامية لا يمكن أن يتحقق إلا بثلاث ركائز: الحفاظ على الكتب الموجودة خاصة الدينية، تعلم اللغة، التآليف الجديدة.

بالنسبة للحفاظ على الكتب الموجودة لدى الموريسكيين ورغم صدور قرارات تسليمها للسلطات المسيحية [456] والإغراءات المقدمة من طرف الكنيسة لتسليم الكتب العربية [457] ورغم ما تعرضت له الكتب من نهب وحرق في الأيام الأولى

---

456 – صدر قرار سنة 1526 م يتضمن ضرورة تسليم الكتب العربية إلى السلطات المسيحية خلال 30 يوما .

457 – أصدرت السلطات الكنسية في فيفري 1593 م بيانا تدعو فيه إلى تسليم الكتب العربية مقابل الحصول على العفو الكنسي .

لسقوط غرناطة [458]، إلا أن الموريسكيين حافظوا على كتبهم بحكم التزامهم مبدأ التقية. إن إخفاء الكتب ظاهرة شائعة في أوساط العائلات [459] والمكتبات السرية المنتشرة في أقبية البيوت، ظاهرة طبعت أغلب المدن التي استوطنها الموريسكيون. والرجوع إلى ملفات محاكم التفتيش يطلعنا على كثير من المعلومات حول هذه المكتبات السرية ومالكيها، هذه المكتبات التي بقيت حتى طرد الموريسكيين نهائيًا من إسبانيا[460].

إنّ أغلب العائلات قد حافظت على الكتب التي كانت تمتلكها قبل سقوط غرناطة، وبالغت في الاحتياط خوفا من اكتشاف المكتبات التي تؤدي في كل الأحوال إلى حبل المشنقة [461]، وأمام هذا الخطر المحدق من جهة، وضرورة تعليم الأطفال اللغة العربية ليتمكنوا من الإطلاع على هذه الكتب من

---

458 – وحسب المؤرخين، تم حرق حوالي 1.5 مليون ونصف مليون كتاب بما فيها المخطوطات، كما قام سيسنيروس بحرق 5000 كتاب سنة 1500م في غرناطة وحدها.

459 – رزوق : الهجرة الأندلسية ، ص : 91 .

460 – اكتشفت مكتبة في منطقة المونيكادا دي لاسيرا A lmonicada DE La Serre عام 1884 م – أي أكثر من 260 سنة بعد صدور قرار الطرد النهائي .

461 – ومن جملة العقوبات الأخرى (الجلد و العمل لسنوات كملاح على ظهر السفن دون مقابل).

جهة ثانية فإن الموريسكيين بعنادهم آلوا على أنفسهم إلا أن يجدوا لغة جديدة تكون بمثابة وسيلة الاتصال، وحبل النجاة من إصـــرار الكنيسة على تعليم أطفالهم اللغة الإسبانية إجباريًا، وتحـــريم اللغـــة العربية قطعيًا.

ومن أجل ذلك ابتكر الموريسكيون لغة خاصة بهم، عرفت باللغة الأعجمية أو **الألخمايد** Aljmaido وعرفت بهذا الاسم لأنها اعتمدت على مزيج بين الخط العربي و المعاني الرومانسية أي العامية اللاتينية [462] لتسهيل تداول هذه اللغة بـــين مختلـــف الأقليـــات الموريسكية المنتشرة بأرغون وكاطالونيا ... التي تنتشر بهـــا هـــذه العامية اللاتينية منذ مدة.

هذه اللغة الابتكار الموريسكي البحت [463] أصـــبحت في مدة زمنية قصيرة لغة التأليف عند الموريسكيين، حيث وصلنا الكثير من الكتب الدينية والأدعية المكتوبة بالألخمايدو[464] ومازال أغلب التأليف المكتوب بهذه اللغة مخطوطة رغم ظهور باحثين متخصصين في هذا النوع من اللغة (الألخمايدو) من أمثال: **أوتمـــار هيقـــي**

---

462 حمادي: الموريسكيون، ص: 103.

463 هذه الطريقة "المزج بين لغتين من حيث الخط والمعنى، استعملها اليهود في إسبانيا حيث استخدموا الخط العربي والمعاني العبرية لتسجيل أثارهم الدينية.

464 Longas. P: Vida Relgiosa.P:206

Ottmer Heggi و البـــارو قالمـــاس Alvaro galmes[465]
ومانويل البار Manuel alvar

وبدأت الترجمة إلى اللغة الألخمايدية تأخـــذ طريقهـــا إلى الانتشار لنشر الثقافة الدينية في الوسط الموريسكي إذ ترجمت العديد من الكتب وفي مقدمتها القرآن الكريم، و الترجمة في هذه الحالة هي امتداد لحركة الاستماتة التي انتهجتها الطائفة الموريسكية للمحافظة على مقومات شخصيتها والتصدي لسياسة الإدماج المنتهجة مـــن طرف الكنيسة الكاثوليكية، وهذا ما يستنبط من اعتمـــاد الخـــط العربي للكتابة للدلالة على البعد الحضاري والديني.

وإلى جانب الترجمة، ظهر التأليف باللغة الألخمايديـــة[466] كوسيلة للتدليل عن حجم المعاناة الموريســـكية، والكشـــف عـــن الاغتراب الثقافي والإحساس بالظلم المسلط من طـــرف الإســـبان المسيحيين، ولهذا كانت أغلب الكتب أدبية ودينية، فالكتاب الأدبي بما يتضمنه من شعر ونثر يسمح بالإفصاح عن الأحاسيس الكامنـــة في صدر الموريسكي، مثلما فعل الشاعر الموريسكي: خوان ألفونسو

---

[465] هذا الأخير أحصى حوالي 200 مخطوط موريسكي لم تعرف طريقها للنشر، أنظر Alvaro Galmes وكتابه: El Libro de Las Batallas Madrid 1975.

[466] نظرا لاعتماد التقية فإن الكثير من المؤلفات بقي مؤلفوها مجهولين .

والمعروف باسم المعلم خوان ألفونسو Juan Alfonso [467] حيث وصف الإسباني بخائن العهود وبالغراب الملعون. ومن بين التـــآليف الأدبية المشهورة باللغة الألخمايدية قصة: حمام زرياب [468] وقصة: العربي والجارية، وقصة: يعقوب الجزار كلــها مازالــت محفوظــة بالمكتبة الوطنية بمدريد [469].

أما غالبية التأليف فغلب عليها الطابع الديني باعتبار الـــدين هو الغطاء والوجاء الذي يحمي الموريسكيين من الذوبان في المجتمع المسيحي.

وللوقوف على هذا التراث نرى تصنيف الدكتور عبـــد الله حمّادي لهذا الموروث الثقافي الموريسكي مقسوما إلى أربعة أقســـام حسب المواضع: [470]

---

467 - لقب بالمعلم " EL MAETRO " لنبوغه في الشعر و هو موريسكي رحل إلى شمال إفريقيا، وله قصيدة طويلة مخطوطة بالمكتبة الوطنية بمدريد تحت رقم 9067 .

468 - انظر صورة لغلاف القصة باللغة اللاخمادية في الملاحق .

469 - نشر المؤرخ ميقال أسين Miguel A sin Palacios بحثا حول الأصل العربي في قصة حمام زرياب باللغة الإسبانية - سنة 1924 -

. Origin Arabe de La Novela A ljamido. « El Bano de Zeriab "

470 لمزيد من التفصيل انظر د / حمادي عبد الله : الموريسكيون الأندلسيون. ص : 116

1- **قسم الكتب الدينية:** وهي الغالبة بالنسبة للتراث الموريسكي المتروك، و ذلك ليس غريبا إذا عرفنا أن الدين كان محور الصراع والمواجهة بين الطائفتين الموريسكية والمسيحية. فكان اللجوء إلى التآليف الدينية لكسب سلاح المقاومة ضد المحاولات الجهنّمية للقضاء على مقوّمات المجتمع الموريسكي الأصيل.

2- **قسم الجدل:** وهي كتابات ألفها الموريسكيون للردّ على خصوم المسلمين، وتدور في أغلبها حول التراث الإسلامي وتمجيد الشريعة المحمدية، ولأنّ المجادلة صيغة عامة في المدن بين الموريسكيين والمسيحيين.

3- **قسم الكتابات القصصية:** وتدور في معظمها حول سرد بطولات الفاتحين الإسلاميين، والغزوات أو تمجد الفروسية العربية، في محاولة لإثبات الذات، والتفاخر بماضي الأجداد.

4- **قسم التشريعات:** تنظيم الحياة العامة، فتاوى الفقهاء دليل الصلاة و الصوم....الخ

وقبل أن نختم الحديث عن العناصر المشكلة للحياة الثقافية عند الموريسكيين من تأليف وحفاظ على الكتب و ابتكار لغة جديدة، لا بد من الإشارة إلى انتشار ظاهرة التعليم السري لدى العائلات الموريسكية، والتحايل في هذا المجال. إذ دأبت العائلات

على إرسال أبنائها إلى الكنيسة لتعلم اللغة الإسبانية، والتعاليم المسيحية، للتظاهر بقبول الوضع الجديد. لكن بمجرد عودة الأطفال يؤخذون إلى بيوت سرية، تحوّلت إلى مدارس لتعليم اللغة العربية وتعاليم الإسلام على يد فقهاء ملمّين بشؤون الديانة المحمدية، و في ذلك يشير صاحب كتاب : **الأنوار النبوية في أبناء خير البريّة**[471]:

"كنت أذهب إلى مكتب النصارى لأقرأ دينهم، ثم أرجع إلى بيتي فيعلمني والدي دين الإسلام.". وهكذا نرى أن كل بيت موريسكي تحول إلى مدرسة، وكل رب عائلة صار معلمًا يعلم أبناءه اللغة العربية والإسلام، والتعليم مهنة متوارثة أب عن جد وهو وظيفة الكل. و في المقابل جريمة تستحق العقاب في حالة اكتشاف الأمر[472].

وبهذه الطريقة استطاع الموريسكيون الإبقاء على حبل الارتباط بينهم و بين أصولهم العربية الإسلامية داخل وسط يصعب على المرء فيه الحفاظ على شخصيته دون اللجوء إلى أساليب ناجحة، واستعمال ذكاء خارق، والاستماتة في المواجهة وابتكار

---

471 وهو محمد بن عبد الرفيع الأندلسي، موريسكي عاش الأحداث ثم انتقل إلى تونس ويعتبر شاهد عيان.

472 وهذا ما وقع للموريسكي، ميقوال موزا « Miguel Moza » عام 1573م إذ مثل أمام المحكمة بتهمة تنظيم إجتماعات سرية في بيته لتعليم القرآن واللغة العربية.

الوسائل الكفيلة ببقاء الاتصال مع مقومات الشخصية الأصيلة مع خطر الأعداء المتربّصين.

الخـــاتمـــــــة

الخاتمة :

وفي خلاصة هذا البحث نجد أنفسنا أمام سؤال جوهري هل كان أسلوب التقية ناجحا ؟ وهل استطاع الموريسكيون تحقيق الهدف الذي من أجله مارسوا الكتمان والمداراة ؟

والإجابة على هذا السؤال تتطلب منا معرفة الهدف والغاية من إنتهاج أسلوب المداراة، فإذا سلّمنا أن الموريسكيين اضطروا إلى ذلك اضطرارا لا لغرض دنيوي زائل، ولا لقلب نظام حكم ولا من أجل التقاتل شيعا بين المسلمين، بل لجأوا إلى التقية حفظا لدينهم وهم القابضون عليه كالقابض على الجمر، ولم يبق لهم طريق آخر غير إخفاء معتقدهم أمام أعين كنيسة تتربّص بهم الدوائر و تفتش عن أبسط سبب للتنكيل بهم .

إذن فتقييم مدى نجاح هذا الأسلوب وسط مجتمع معاد وأكثر من ذلك بنيّة مبيتة للقضاء على الإسلام نهائيا بأرض الأندلس، يكفينا أن نأخذ مثالا حيّا، فبعد أكثر من قرن من سقوط غرناطة، ومائة سنة كاملة من التنصير القسري والضّغط الكنسي، والمراقبة المستمرة، ومئات الأوامر والقوانين الجائرة ضدّ هذه الطائفة من الغرباء كما سمّوا أنفسهم في رسالة إلى السلطان العثماني سليمان القانوني سنة 1541 م.

وُجد رجل موريسكي سنة 1601 م يدعى " **خيرونيمو دي روخاس** " يدعو لدين محمد (ص) داخل سجن بطليطلة وبعده بأربع سنوات 1605 م وفي بلنسية قام موريسكي آخر اسمه "**فاكيني**" بدعوة أحد رعاته إلى الدين الإسلامي.

ومن بين مظاهر نجاعة الصدارة أسلوب والكتمان بقاء الكتب الدينية متبادلة بين الأفراد، وبين المدن، ممّا دفع السلطات الكنسية إلى سنّ عقوبة خاصة لمن وجد عنده مثل هذه الكتب

واستعراضنا للحادثتين السابقتين سنوات فقط قبيل صدور قانون الطرد النهائي سنة 1609 م يؤكّد لنا بأن الموريسكيين بقوا على دينهم حتى طردهم نهائيا من إسبانيا وهذا بشهادة القساوسة أنفسهم، ونقرأ ذلك في شهادات مفتشي محاكم التفتيش ففي رسالة بعثوا بها سنة 1560 م " إن كل الموريسكيين يعتبرون مسلمين سرا " .. وظلوا يعتبرون - خاصة في قشتالة - أنّ كل الموريسكيين مسلمون .

ولا نتعجّب إذن إذا وجدنا أحد الموريسكيين - عندما شعر بقرب صدور قانون الطرد - يتحدّى المسيحيين، ويعلن أنّه مسلم، وإنّ كل سكان بلنسية عرب مثل عرب الجزائر .

وهكذا نرى بأنّ وابـــل القـــرارات الكنســـية ووحشـــية العقوبات، وحقد القساوســـة وروح الريكونكيســـتا " حركـــة الاسترداد " لم تثمر أمام صـــلابة العقيـــدة الإســـلامية عنـــد الموريسكـــيين. وأمام إصرارهم على الحفاظ على دينهم.

وتبقى قضية مسلمي الأندلس بعد تسليم غرناطـــة عـــام 1492 م وماحدث لهم مع محاكم التفتيش وصمة عار في جـــبين الكنيســـة الكاثوليكية .

الملاحق

ملحق رقم 1

نص معاهدة غرناطة العلنية*:

المادة الأولى:

على ملك غرناطة والقادة والفقهاء والحجاب و العلماء والمفتين والوجهاء بمدينة غرناطة و البيازين وضواحيها أن يسلموا إلى صاحبي السمو، أو من ينتدبانه للنيابة عنهما في مدة أقصاها ستون يوما، اعتبارا من 25 تشرين عام 1491م معاقل الحمراء، والبيازين وأبواب تلك المعاقل، وأبراجا، وأبواب المدينة المذكورة، والبيازين وضواحيها، وضمن هذه الشروط يأمر صاحبا السمو بأن لا يصعد أي نصراني السور القائم بين الحمراء والبيازين، لئلا يكشف عورات المسلمين في بيوتهم، وإن خالف أحد هذه الأوامر يعاقب عقوبة شديدة، و ضمن هذا الشرط سيقدم المسلمون الطاعة والإخلاص والولاء كأتباع مخلصين لصاحبي السمو.

وضمانا لسلامة تنفيذ هذه البنود، يقدم أبو عبد الله الصغير ملك غرناطة إلى صاحبي السمو خمسمائة شخص من أبناء وبنات علية القوم، في المدينة والبيازين وضواحيها، وذلك قبيل تسليم الحمراء بيوم واحد، مصطحبين معهم الحجاب يوسف بن قماشة، ليكونوا جميعهم

رهائن لدى صاحبي السمو، لمدة عشرة أيام يتم خلالها ترميم المعاقل المذكورة، شريطة أن يعامل الرهائن في هذه الفترة معاملة حسنة، وفي نهاية الأجل المحدد يرد الرهائن إلى ملك غرناطة، ويراعي هذه الاتفاقية صاحبا السمو وأبنهما دون خوان وسلالتهم، ويعتبر أبو عبد الله الصغير وسائر قادته، وجميع سكان غرناطة والبيازين وضواحيها وقراها وأراضيها، والقرى والأماكن التابعة للبشرات رعايا طبيعيين، ويبقون تحت رعايتهم و دفاعهم، وتترك لهم جميع بيوتهم وأراضيهم وعقارهم وأملاكهم حاليا ودائما دون أن يلحق بها أي ضرر أو حيف، وأن لا يؤخذ أي شيء مما يخصهم، بل بالعكس، سيتم احترام الجميع ومساعدتهم ويلقون المعاملة الطيبة من قبل صاحبي السمو وشعبها كخدم وأتباع لهما.

المادة الثانية:

في الوقت الذي يستلم صاحبا السمو قصر الحمراء، يأمران أتباعهما بالدخول من بابي العشار ونجدة، ومن الحقل القائم خارج المدينة وعلى من يعين لاستلام الحمراء أن لا يدخل من وسط المدينة.

المادة الثالثة:

في اليوم الذي يتم فيه تسليم الحمراء والبيازين، وشوارعهما وقلاعهما وأبوابهما وغير ذلك، يقوم صاحبا السمو بتسليم ابن الملك

أبي عبد الله الصغير، المحتجز في قلعة موكلين، مع سائر الرهائن الموجودين معه وسائر الحشم والخدم الذين كانوا برفقته، ولا يكرهون على التنصير أثناء احتجازهم.

المادة الرابعة:

يسمح صاحبا السمو وسلالتهما للملك أبي عبد الله الصغير وشعبه أن يعيشوا دائما ضمن قانونهم -أي بممارسة الشعائر الإسلامية- دون المساس بسكانهم وجوامعهم وأبراجهم، وسيأمرون بالحفاظ على مواردهم، وسيحاكمون بموجب قوانينهم و قضاتهم، حسبما جرت عليه العادة وسيكونون موضع الاحترام من قبل النصارى، كما تحترم عاداتهم وتقاليدهم إلى غير حين.

المادة الخامسة:

لن تصادر من المسلمين أسلحتهم أو خيولهم أو أي شيء آخر، حاضرا وإلى الأبد، باستثناء الذخيرة الحربية التي يجب تسليمها لصاحبي السمو.

المادة السادسة:

يسمح لمن يرغب في الجواز إلى العدوة* أو أي مكان آخر، من أهالي غرناطة والبيازين والبشرات والمناطق الأخرى، التابعة لمملكة غرناطة ببيع ممتلكاتهم و أراضيهم لمن شاءوا، ولن يحاول صاحبا السمو

وذريتهما منعهم من ذلك أبدا، وإذا ما رغب صاحبا السمو بشرائها من أموالهم الخاصة، فشأنهما في ذلك شأن سائر الناس، و لكن الأولوية تكون لهما.

المادة السابعة:

الأشخاص الذين يرغبون في العبور إلى العودة تجهز عملية نقلهم في غضون ستين يوما من تاريخه، على متن عشر سفن كبيرة تتوزع على الموانئ القريبة منهم، حسب رغبة المبحرين ليحملوا أحرارا و طوع أرادهم إلى المكان الذي يرغبون النزول إليه فيما وراء البحر-أرض المغرب- خاصة الموانئ التي كانت ترسو بها تلك السفن.

أم الأشخاص الذين يرغبون في العبور في غضون الأعوام الثلاثة القادمة فتهيأ لهم السفن الخاصة من الموانئ القريبة لمكان إقامتهم، شريطة أن يقدموا طلباتهم قبل موعد الرحيل بخمسين يوما، وينقلون برعاية تامة إلى الميناء الذي يرغبون بالنزول فيه، ولا يترتب على من يريد العبور إلى العودة خلال الأعوام الثلاثة هذه أجر أو نفقة، أما الذين يرغبون في العبور بعد انتهاء الأعوام الثلاثة، فعليهم دفع دوبلة واحدة فقط عن كل شخص، أما الذين لا يتمكنون من بيع أملاكهم الموزعة في جميع أنحاء مملكة غرناطة قبل سفرهم، فيحق لهم تفويض أي شخص من أجل تحصيل حقوقهم، وليقوموا مقامهم، ويتولوا بعد ذلك إرسال هذه الحقوق لأصحابها أينما كانوا وبدون أية عوائق.

المادة الثامنة:

لا يرغم صاحبا السمو وسلالتها حاضرا وإلى الأبد المسلمين وأعقابهم على وضع أية شارة مميزة لملابسهم.

المادة التاسعة:

لا يحق لصاحبي السمو لمدة ثلاث سنوات من تاريخه تحصيل الإتاوات من الملك أبي عبد الله الصغير و سكان غرناطة والبيازين وأرباضهما، وهي الإتاوات التي يترتب أداؤها عن دورهم وأملاكهم الموروثة، بل يكفي أن يدفع المسلمون لصاحبي السمو، عشر الخبز والذرة، وعشر المواشي خلال شهري نيسان و مارس.

المادة العاشرة:

على الملك أبي عبد الله وسائر سكان المملكة الذين شملهم الاتفاقية أن يطلقوا سراح جميع الأسرى النصارى، الذين في قبضتهم أو في أي مكان آخر طواعية و دون أية فدية، وذلك حين تسلم المدينة.

المادة الحادية عشرة:

على صاحبي السمو أن لا يستخدما أي رجل من أتبـــاع أبي عبد الله أو سكان المملكة، أو أن يسخرا دواهم في أي غرض دون أن تدفع لهم أجورهم.

المادة الثانية عشرة:

لا يسمح لأي نصراني بدخول المساجد، أو أي مكان لعبـــادة المسلمين دون إذن من الفقهاء، و من يخالف ذلك يعاقبـــه صـــاحبا السمو.

المادة الثالثة عشر :

لا يجوز لأي يهودي أن يتولى الجباية أو تحصيل الضرائب من المسلمين بشكل مباشر ، أو أن يمنح اية سلطة أو ولاية عليهم .

المادة الرابعة عشرة:

يعامل صاحبا السمو الملك أبا عبد الله الصغير وسائر رعايـــاه الذين شملتهم هذه المعاملة معاملة شريفة، وتحترم عاداهم و تقاليدهم، وتمنح للقادة و الفقهاء الحقوق، وتبقى الحقوق التي كان يتمتـــع بهـــا هؤلاء زمن أبي عبد الله الصغير على حالها، ويعتـــرف لهـــم بتلـــك الحقوق.

المادة الخامسة عشرة:

يجب أن يقضي في أية دعوى أو مشكلة تقع بين المسلمين القضاة وفقا لأحكام الشريعة الإسلامية، كما جرت العادة.

المادة السادسة عشرة:

يصدر صاحبا السمو أوامرهما للمسلمين بعدم إيواء الضيوف من النصارى، أو إخراج الثياب أو الدواجن أو الدواب، ويشمل ذلك صاحبي السمو وجماعتهما، إذ يمنع على هؤلاء النصارى دخول بيوت المسلمين، واستعمال مضايفهم لإقامة الحفلات.

المادة السابعة عشرة:

إذا دخل نصراني مترل مسلم قسرا يطلب صاحبا السمو من العدالة إيقاع العقوبة عليه.

المادة الثامنة عشرة:

فيما يتعلق بقضايا التركات عند المسلمين يجب أن ينظر بها القضاة المسلمون، وفق النظم الإسلامية.

المادة التاسعة عشرة:

تشمل هذه المعاهدة قاطني الأحياء المجاورة لمدينة غرناطة، وسكان القرى والأحياء المجاورة للمدينة والبشرات وأماكن أخرى، بما في ذلك الأشخاص الذين قد يقبلون المعاهدة بعد مرور ثلاثين يوما من

تسليم غرناطة، ويتمتع هؤلاء بجميع الإعفـــاءات الممنوحـــة خـــلال السنوات الثلاثة.

المادة العشرون:

يتولى الفقهاء إدارة إيراد الجوامع و الحلقات الدراسية فيها، ما يرصد من أجل الصدقة أو عمل خير، بما في ذلك إيرادات المدارس التي تنفق في تعليم الصبيان، لا يحق لصاحبي السمو التدخل بأي حال من الأحوال في شأن الصدقات، أو الأمر بمصادرتها في أي وقت في الحضر أو فيما بعد.

المادة الحادية و العشرون:

لا يجوز لمن يتولى القضاء إصدار قرارات ضد أي مسلم بذنب اقترفه آخر، فلا يؤخذ الأب بذنب ابنه، و لا الولد بذنب والده، و لا أخ بذنب أخيه، ولا القريب بذنب قرابته، بل تقع العقوبة على مـــن يقترف الجرم.

المادة الثانية و العشرون:

يقرر صاحبا السمو العفو عن المسلمين من أتباع القائد حميـــد أبي علي الذين كانوا يذودون عن حصونهم ضد هجمات النصارى و لا يطلب أي تعوض عمن قتل من النصارى أثناء اصـــطدامهم مـــع

المدافعين من المسلمين، أو عما أخذه المسلمون من المكاسب في ذلك المكان، في الحاضر أو فيما بعد.

المادة الثالثة و العشرون:

يغفر صاحبا السمو لمسلمي مدينة الكابطي هجماهم و اعتداءاهم التي كانت تستهدف حرس الملكين، وتمنح لهم حرية العيش كبقية إخوانهم الذين شملتهم هذه المعاهدة.

المادة الرابعة و العشرون:

يعتبر صاحبا السمو جميع أسرى المسلمين أو الفارين من الأسر إلى مدينة غرناطة والبيازين وأرباضهما، أو إلى أي ناحية تابعة لمدينة غرناطة أحرارا، ولا تصدر العدالة بحقهم أي حكم كان، لكن الامتياز خاص بمسلمي الأندلس و لا يشمل أسرى الجزر أو كناريس.

المادة الخامسة و العشرون:

لا يدفع المسلمون لصاحبي السمو أكثر مما كانوا يدفعونه لملوكهم المسلمين من الإتاوات.

المادة السادسة و العشرون:

يسمح لجميع من عبروا العدوة من سكان غرناطة، والأرجاء التابعة لها، والبيازين وأرباضهما، والبشرات وغيرها، بالعودة خلال

ثلاثة أعوام من تاريخ إبرام الاتفاقيات والتمتع بالامتيازات التي تمنحها لهم هذه الاتفاقية.

المادة السابعة و العشرون:

لا يجبر أي مسلم حمل معه بعض الأسرى النصارى إلى العدوة، وجعلهم في قبضة سلطة أخرى، على إرجاع هؤلاء الأسرى، أو إعادة الأجر الذي تقاضاه لقاء تسليمه.

المادة الثامنة و العشرون:

يحق للملك أبي عبد الله أو أي من قواده، أو سكان القرى و الأرجاء المجاورة لغرناطة والبيازين والبشرات وغيرها، ممن عبروا إلى العدوة و لم تطب لهم الإقامة هناك، أن يعودوا خلال الأعوام الثلاثة، ولهم الحق بأن يتمتعوا بكافة نصوص الاتفاقية المبرمة.

المادة التاسعة و العشرون:

يحق لتجار مدينة غرناطة والبيازين وأرباضهما، والبشرات وغيرها أن يحملوا سلعهم إلى المغرب، ويعودا لها آمنين مطمئنين، كما يحق لهم دخول سائر الأرجاء التي في حوزة الملكين الكاثوليكيين، دون أن تترتب عليهم أية إتاوة مترتبة على النصارى.

المادة الثلاثون:

لا يجوز إرغام أية نصرانية تزوجت من أحد المسلمين واعتنقت الدين الإسلامي على العودة إلى النصرانية إلا طائعة، وبعد أن تسأل في ذلك أمام جمع من المسلمين والنصارى، وفيما يتعلق بأبناء الروميات وبناتهن فلهم نفس الحقوق المنصوص إليها في هذه الفقرة.

المادة الحادية و الثلاثون:

إذا سبق لأي نصراني ذكرا كان أو أنثى اعتناق الإسلام قبل إبرام هذه الاتفاقية فلا يحق لأي أحد من النصارى أن يهدده، أو ينال منه بأية صورة، ومن يفعل ذلك يلق إثمًا.

المادة الثانية و الثلاثون:

لا يجوز إرغام مسلم أو مسلمة على اعتناق النصرانية.

المادة الثالثة و الثلاثون:

إذا رغبة امرأة مسلمة متزوجة أو أرملة أو بكر في اعتناق النصرانية بدافع العشق فلا يستجاب لها، حتى تسأل وتوعظ وفقا للشريعة الإسلامية، وإذا حملت معها خفية بعض الحلي أو غيرها من دار والدها أو أقارها أو أي شخص كان فيجب إعادة هذه الأشياء إلى ذويها وتعتبر اختلاسًا وتتولى العدالة اتخاذ الإجراءات الصارمة بحقها.

المادة الرابعة و الثلاثون:

أن لا يرغم صاحبا السمو أو أي واحد من عقبهما حاضرًا أو مستقبلاً أبا عبد الله الصغير، أو جماعته أو حاشيته، أو أي أحد من سكان المملكة أو خارجها مسلمين ونصارى ومدجنين بردّ ما غنموه أثناء الوقائع التي جرت بينهم، من الثياب والمواشي والأغنام والفضة والذهب وغيرها من الأشياء التي وضع المسلمون أيديهم عليها، ولا يحق لأحد أن يطالب بشيء يكتشف أنه كان له، وإذا طالب به فإنه يعرض نفسه لأقصى العقوبات.

المادة الخامسة و الثلاثون:

إذا سبق مسلم أن أهان أسيرا نصرانيًا -ذكرا أو أنثى- أو جرحه أو قتله أثناء احتفاظه به، فلا يسأل عن شيء مما كان.

المادة السادسة و الثلاثون:

بعد انتهاء السنوات الثلاث المنصوص عليها في الاتفاقية تدفع ضريبة الأملاك والضياع الأميرية وفقا لقيمتها الحقيقية شأن سائر الأملاك والأراضي.

المادة السابعة و الثلاثون:

تعامل أملاك الفرسان والقادة المسلمين المعاملة المنصوص عليها في البند السابق فلا يدفع عنها أكثر مما يدفع عن الأملاك العادية.

المادة الثامنة و الثلاثون:

وتشمل هذه الاتفاقية أيضا اليهود من مواليد مدينة غرناطة و البيازين وأرباضهما والأراضي التابعة لهما، واليهود الذين كانوا من قبل نصارى، ويسمح لهؤلاء اليهود بالعبور إلى العدوة خلال شهر من تاريخه.

المادة التاسعة و الثلاثون:

أن يعامل الحكام والقواد والقضاة الذين يعينهم صاحبا السمو على مدينة غرناطة و البيازين و الكور التابعة لهما الناس بالحسنى، وأن يحافظوا على امتيازاتهم الممنوحة لهم في العادة، وإذا أخل أحدهم بذلك، أو ارتكب خطيئة يصدر صاحبا السمو أوامرهما بمعاقبته على قدر جرمه وعزله من منصبه و توليت غيره، من يحسنون معاملية المسلمين كما نصت عليه الاتفاقية.

المادة الأربعون:

لا يحق لصاحبي السمو أو أي من أبنائهما وأحفادهما منذ الآن التعقب على شيء ارتكبه الملك أو عبد الله الصغير، أو أحد من رعاياه، إلى حين تسليم الحمراء أي بعد مرور ستين يوما من توقيع الاتفاقية.

المادة الحادية و الأربعون:

أن يتولى على جماعة أبي عبد الله الصغير واحد من الفرسان أو القادة أو الخاصة الذين كانوا موالين لمولاي أبي عبد الله الزغل ملـــك وادي آش، عم أبي عبد الله الصغير الذي كانت بينه وبين أبي عبد الله عداوة قديمة.

المادة الثانية و الأربعون:

يتولى النظر في الخصومات التي قد تقع بين مسلم و نصراني، أو مسلمة ونصرانية مجلس مؤلف من حكمين: أحدهما مسلم و الآخـــر مسيحي تحاشيا للتظلم من الأحكام القضائية.

المادة الثالثة و الأربعون:

وبالإضافة إلى جميع ما نصت عليه الاتفاقية، يأمر صاحبا السمو بمنح أبي عبد الله الصغير كل الامتيازات المنصوص عليها في الاتفاقيات الموثقة بخاتم الأمير -نجل صاحبي السمو- والموقعة من قبل كاردينـــال إسبانيا و الكهان و الأساقفة ورؤساء الأديرة و الشرفاء والدوقـــات والمركزيات والكونتات وأصحاب المراتب الجليلة وكتاب العدليـــة في مدينة غرناطة، اعتبارا من يوم تسليم الحمراء والبيـــازين وأبوابهمـــا

وأبراجهما، وتعتبر جميع محتويات هذه الاتفاقية نافذة و سارية المفعول في الحاضر وفيما بعد.

المادة الرابعة و الأربعون:

يصدر صاحبا السمو أوامرهما بالإفراج عن أسرى المسلمين، ذكورا وإناثا، من أهالي غرناطة والبيازين وأرباضهما والكور التابعة للمملكة، إفراجا غير مشروط بنفقة أو فدبة أو غيرها، وذلك إرضاء الملك أبي عبد الله الصغير وأهالي غرناطة والبيازين وأرباضهما وضياعهما كافة، ويتم الإفراج عن هؤلاء الأسرى على النحو التالي:

يفرج عن جميع أسرى مدينة غرناطة والبيازين أرباضهما وضياعهما الموجودين في الأندلس خلال الأشهر الخمسة التي تعقب إبرام المعاهدة، ويفرج عن الأسرى الموجودين في قشتالة خلال الأشهر الثمانية التالية، وبعد انقضاء يومين من تسليم أسرى النصارى لصاحبي السمو، يتسلم المسلمون مائتي أسير مسلم، مائة من الرهائن، والمائة الثانية من غير الرهائن المائة.

المادة الخامسة و الأربعون:

يصدر صاحبا السمو أوامرهما بإخلاء سبيل (ابن الدرامي) الأسر عند (غونثالو فرناندث)، و (عثمان) أسير (الكونت تنديا)، وابن رضوان أسير الكونت (قبرة)، وإعادة ابن الفقيه محي الدين وخمسة أشخاص من خاصة إبراهيم بن السراج الذين فقدوا وعرف

مكان وجودهم، وذلك في الوقت الذي يسلم فيه صاحبا السمو أسرى مدينة الحمراء والبيازين المائة والرهائن المائة.

المادة السادسة و الأربعون:

إذا خضعت أية ناحية من نواحي البشرات لسلطة صاحبي السمو فإنه يتأتى على المسلمين تسليم جميع الأسرى النصارى الموجودين لديهم، في مدة أقصاها خمسة عشر يوما من تاريخ الانضمام، دون أن يؤدي سموهما أي شيء مقابل ذلك التسليم، كما يجب على هذه النواحي تسليم أية رهينة من النصارى لديهم خلال المدة، ويقوم صاحبا السمو في مقابل ذلك بإعادة جميع أسرى المسلمين المحتجزين لدى الإسبان.

المادة السابعة و الأربعون:

يتعهد صاحبا السمو لجميع السفن التي تأتي من المغرب، وترسو في موانئ مملكة غرناطة، بحرية التنقل ذهابا و إيابا، وهي آمنة شريطة أن لا تقوم بنقل الأسرى من النصارى، ويصدر صاحبا السمو أوامرهما للنصارى بعدم اعتراض السفن أو الضرر بها أو بأهلها أو بمصادرة شيء منها... وفي حالة مخالفة إحدى السفن لهذه التعليمات بنقل الأسرى من النصارى، فإن حقها في الحماية يصبح لاغيًا، ويحق لسموهما إرسال مفتش أو مفتشين يتوليان مهمة تفتيش السفن التي تعبر إلى المغرب، للتحقق من نفاذ هذه التعليمات.

ملحق رقم 2 :

رسالة الاستغاثة التي أرسلها الأندلسيون على شكل قصيدة شعرية إلى السلطان با يزيد الثاني سنة 1501 م

سلام كريم دائم متجـــــــــــــدد أخص به مولاي خير خليفــــــــــة

سلام على مولاي ذي المجد و العــلا و من ألبس الكفار ثوب المذلـــــــة

سلام على من وسع الله ملكـــــــه و أيده بالنصر في كل وجهـــــــــة

سلام على مولاي من دار ملكـــه قسطينة أكرم بها من مدينــــــــة

سلام على من زين الله ملكــــــه بجند و أتراك من أهل الرعايـــــــة

سلام عليكم شرف الله قدركـــــم و زادكم ملكا على كل ملـــــــــة

سلام على القاضي و من كان مقله من العلماء الأكرمين الأجلـــــــة

سلام على أهل الديانة و التقـــــى و من كان ذا راي من أهل المشـــورة

سلام عليكم من عبيد تخلفــــــوا بأندلس بالمغرب في أرض غربـــــــة

أحاط بهم بحر من الروم زاخــــر و بحر عميق ذو ظلام و لجـــــــــــة

سلام عليكم من عبيد أصابهـــــم مصاب عظيم يالها من مصيبـــــــــة

سلام عليكم من شيوخ تمزقـــــت شيوبهم بالنتف من بعد عــــــــزة

سلام عليكم من وجوه تكشفــــت على جملة الأعلاج من بعد ستـــــرة

سلام عليكم من بنات عواتـــــق يسوقهم اللباط قهرا لخلـــــــــوة

سلام عليكم من عجائز أكرهــــت على أكل خنزير و لحم الجيفـــــــــة

نقبل نحن الكل أرض بساطكـــــم و ندعو لكم بالخير في كل ساعـــــة

أدام الإله ملككم و حياتكـــــــم و عافاكم من كل سوء و محنـــــــة

و أيدكم بالنصر و الظفر بالعـــدا و أسكنكم دار الرضا و الكرامـــــة

شكونا لكم مولاي ما قد أصابــنا من الضر و البلوى و عظم الرزيـــة

غدرنا و نصرنا و بدل ديننا ... ظلمنا و عوملنا بكل قبيحة

و كنا على دين النبي محمد ... نقاتل عمال الصليب بنية

و نلقى أمورا في الجهاد عظيمة ... بقتل و أسر ثم جوع و قلة

فجاءت علينا الروم من كل جانب ... بسيل عظيم جملة بعد جملة

و مالوا علينا كالجراد بجمعهم ... بجد و عزم من خيول و عدة

فكنا بطول الدهر نلقى جموعهم ... فنقتل فيها فرقة بعد فرقة

و فرسانهم تزداد في كل ساعة ... و فرساننا في حال نقص وقلة

فلما ضعفنا خيموا في بلادنا ... و مالوا علينا بلدة بعد بلدة

و جاءوا بأنفاط عظام كثيرة ... فهدم أسوار البلاد المنيعة

و شدوا عليها في الحصار بقوة ... شهورا و أياما بجد و عزمة

فلما تفانت خيلنا و رجالنا ... و لم نر من إخواننا من إغاثة

و قلت لنا الأقوات و اشتد حالنا ... أطعناهم بالكره خوف الفضيحة

و خوفا على أبنائنا و بناتنا ... من أن يؤسروا أو يقتلوا شر قتلة

على أن نكون مثل من كان قبلنا ... من الدجن من أهل البلاد القديمة

ونبقي على أذاننا و صلاتنا ... ولانتركن شيئا من أمر الشريعة

و من شاء منا البحر جاز مؤمنا ... بما شاء من مال إلى أرض عدوة

غير ذاك من شروط كثيرة ... تزيد على الخمسين شرطا بخمسة

فقال لنا سلطانهم و كبيرهم ... لكم ما شرطتم كاملا بالزيادة

و أبدى لنا كتبا بعهد وموثق ... و قال لنا هذا أماني و ذمتي

فكونوا على أموالكم و دياركم ... كما كنتم من قبل دون أذية

فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم ... بدا غدرهم فينا بنقض العزيمة

و خان عهودا كان قد غرنا بها ... و نصرنا كرها بعنف و سطوة

و أحرق ما كانت لنا من مصاحف ... و خلطها بالزبل أو بالنجاسة

و كل كتاب كان في أمر ديننـــا ... ففي النار ألقوه بهزء وحقـــرة

و لم يتركوا فيها كتابا لمسلـــم ... و لا مصحفا يخلى به للقـــراءة

و من صام أو صلى و يعلم حاله ... ففي النار يلقوه على كل حالـــة

و من لم يجيء منا لموضع كفرهم ... يعاقبه اللباط شر العقوبـــة

و يلطم خديه و يأخذ مالـــه ... و يجعله في السجن في سوء حالـــة

و في رمضان يفسدون صيامنـــا ... بأكل و شرب مرة بعد مـــرة

و قد أمرونا أن نسب نبينـــا ... و لا نذكرنه في رخاء و شـــدة

و قد سمعوا قوما يغنون باسمـــه ... فأدركهم منهم أليم المضـــرة

و عاقبهم حكامهم و ولاتهـــم ... بضرب و تغريم و سجن و ذلـــة

و من جاءه الموت و لم يحضر الذي ... يذكرهم لم يدفنوه بحيلـــة

و يترك في زبل طريحا مجـــدلا ... كمثل حمار ميت أو بهيمـــة

إلى غير هذا من أمور كثيـــرة ... قباح و أفعال غزار رديـــة

و قد بدلت أسماؤنا و تحولـــت ... بأسماء أعلاج من أهل الغبـــاوة

و آها على أبنائنا و بناتنـــا ... يروحون للباط في كل غـــدوة

يعلمهم كفرا و زورا و فريـــة ... و لا يقدروا أن يمنعوهم بحيلـــة

آها على تلك المساجد ســـورت ... مزابل للكفار بعد الطهـــارة

و آها على تلك الصوامع علقـــت ... نواقيسهم فيها نظير الشهـــادة

و آها على تلك البلاد و حسنـــها ... لقد أظلمت بالكفار أعظم ظلمـــه

و صارت لعباد الصليب معاقـــلا ... و قد أمنوا فيها وقوع الإغـــارة

و صرنا عبيدا لا أسارى فنفتـــدى ... و لا مسلمين نطلقهم بالشهـــادة

فلو أبصرت عيناك ما صار حالنـــا ... إليه لجادت بالدموع الغزيـــرة

فيا ويلنا ، يا بؤس ما قد أصابنـــا ... من الضر و البلوى و ثوب المذلـــة

سألناك يا مولاي بالله ربنـــا ... و بالمصطفى المختار خير البريـــة

و بالسادة الأخيار آل محمـــد … و أصحابه أكرم بهم من صحابـــة

و بالسيد العباس عم نبينـــا … و شيبته البيضاء أفضل شيبـــة

و بالصالحين العارفين برهـــم … و كل ولي فاضل ذي كرامـــة

عسى تنظروا فينا و فيما أصابنـــا … لعل إله العرش يأتي برحمـــة

فقولك مسموع و أمرك نافـــذ … و ما قلت من شيء يكون بسرعـــة

و دين النصارى أصله تحت حكمكم … و من ثم يأتيهم إلى كل كـــورة

فبالله يا مولاي منوا بفضلكـــم … علينا برأي أو كلام بحجـــة

فأنتم أولو الإفضال و المجد و العلا … و غوث عباد الله في كل آفـــة

فسل بأيهم أعني المقيم برومـــة … بماذا أجازوا الغدر بعد الأمانـــة ؟

و ما لهم مالوا علينا بغدرهـــم … بغير أذى منا و غير جريمـــة

و جنسهم المغلوب في حفظ ديننـــا … و أمن ملوك ذي وفاء أجلـــة

و لم يخرجوا من دينهم و ديارهـــم … و لا نالهم غدر و لا هناك حرمـــة

و من يعط عهدا ثم يغدر بعهـــده … فذلك حرام الفعل في كل ملـــة

و لا سيما عند الملوك فإنـــه … قبيح شنيع لا يجوز بوجهـــة

و قد بلغ المكتوب منكم إليهـــم … فلم تعلموا منه جميعا بكلمـــة

و ما زادهم إلا اعتداء وجـــرأة … علينا و إقداما بكل مســـاءه

و قد بلغت أرسال مصر إليهـــم … و ما نالهم غدر و لا هناك حرمـــة

و قالوا لتلك الرسل عنا بأننـــا … رضينا بدين الكفر من غير قهـــرة

و ساقوا عقود الزور ممن أطاعهـــم … و والله ما نرضى بتلك الشهـــادة

لقد كذبوا في قولهم و كلامهـــم … علينا بهذا القول أكبر فريـــة

و لكن خوفا القتل و الحرق ردنـــا … نقول كما قالوه من غير نيـــة

و دين رسول الله ما زال عنـــدنا … و توحيدنا لله في كل لحظـــة

و والله ما نرضى بتبديل دينـــنا … و لا بالذي قالوا من أمر الثلاثـــة

و إن زعموا إنا رضينا بدينهم — بغير أذى منهم لنا و مساءه
فسل و حرا عن أهلها كيف أصبحوا — أسارى و قتلى تحت ذل و مهنة
و سل بلفيقا عن قضية أمرها — لقد مزقوا بالسيف من بعد حسرة
و منيافه بالسيف مزق أهلها — كذا فعلوا أيضا بأهل البشرة
و أندرش بالنار أحرق أهلها — بجامعهم صاروا جميعا كفحمة
فها نحن يا مولاي نشكو إليكم — فهذا الذي نلناه من شر فرقة
عسى ديننا يبقى لنا و صلاتنا — كما عاهدونا قبل نقض العزيمة
و إلا فيجلونا جميعا من أرضهم — بأموالنا للغرب دار الأحبة
فأجلاؤنا خير لنا من مقامنا — على الكفر في عز على غير ملة
فهذا الذي نرجوه من عز جاهكم — و من عندكم تقضى لنا حاجة
و من عندكم نرجو زوال كروبنا — و ما نالنا من سوء حال و ذلة
فأنتم بحمد الله خير ملوكنا — و عزتكم تعلو على كل عزة
فنسأل مولانا دوام حياتكم — بملك و عز في سرور و نعمة
و تمدين أوطان و نصر على العدى — و كثرة أجناد و مال و ثروة
و ثم سلام الله تتلوه رحمة — عليكم مدى الأيام في كل ساعة

ملحق رقم 3 :

رسالة مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541م (*)

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الكريم وعلى اله وصحبه، يقبل مواطئ الأقدام الشريفة التي تراها، إذا مر بالعيون الرمدة ابراها، ورحاب الأكف الكريمة التي عطاها، إذا مر بالأرض الممحلة أثراها، أقدام شانها السعي في الخـــيرات والقربـــات، واكف شانها فعل الخيرات والمكرمات، أدام الله أيامها ونصر أعلامها، وأوطاء (كذا) ركاها أعناق الملحدين والمتمردين، وأنعشـــه في كـــل وقت بنصر وفتح مبين، نسأل (كذا) الله تعالى أن يجعله أركابا لم يزل ممتطيا مطايا السعد محفوفا بالسعود، قطبا للسيادة السلطانية عليه تدور وبه تسود، وأن يجعله دائما باقيا في درجات العز والملـــك إلى آخـــر الدهر، مصونا في حرز كنف الله الحريز، وأن يخرق له العادة بطـــول بقائه وما ذلك على الله العزيز، ركاب حضرة الجـــود، ورواق العـــز الممدود، ومعدن الرافة و الحنان، وما من الخائف اللهفان، ومظمن أن الله يأمر بالعدل والإحسان، حضرة فخر الملـــوك البســـيطة، كـــبير سلاطين الزمان، منيل أفانين الأماني والأمان، الملاذ الأعظم والثمـــال

* عثر على هذه الوثيقة الدكتور عبد الجليل التميمي بمتحف طوب كـــابي top kapi باسطمبول. و نشرها في مجلة الأصالة الجزائرية / سنة 1974، عدد 24 – ص63-75.

الأعصم، ذي العروة التي (كذا) لا تفصم، والحجة التي (كذا) لا يخصم، الذي يعترف له القاص والداني بالفضل على الإطلاق، يبوءه رتبة الأصالة والجلالة بالاستحقاق و لم لا فهو نسيم الخلافة العلية في منصب الوراثة، وحايز الفضلة السنية في من خدمة المساجد الثلاثة، وله ملك مصر وأنهارها، والشام و ديارها، و الحجاز وشرف مقدارها، وإلى حضرته مجتمع الرفاق من الآفاق، وإليها تحجج الأجسام بالرحلة والأفئدة بالأشواق، وعلى جمع تلك الحضرة العليا لمحاسن الدين والدنيا، انعقد الإجماع والاصفاق (كذا)، مولانا السلطان الملك الأشرف الأضخم الأرفع الأعرف الأعلم الأحلم الأرحم الأرف (كذا)، الأجود الأكرم الأسمح الأعطف، قامع الملحدين وقاطع دابرة الطغات (كذا) والبغات (كذا) والمردة والمفسدين، ممهد طريق الحج والعمرة والزيارة، الفائز بشرف الدين والدنيا من جهاد في سبيل الله والسقاية في المسجد الحرام والعمارة، مطهر البسيطة من درن فسادها، ومظهر آيات الرأفة والرحمة في بلادها، سلطان الإسلام والمسلمين، عز الدنيا والدين وظل الله على الخليقة أجمعين السلطان **بن السلطان بن السلطان سليمان بن السلطان سليم بن السلطان بايزيد بن محمد خان**، مد الله ظلال النعمة بامتداد ظلاله، وضاعف لديه مواهب أكرامه وأفضاله، وأدام نجم سعده المنير باهر الأشراق، وجعل سهم ضده الحقير لازم

الأخفاق، وحفظ بشهب أولياء مجده من مردة النفاق، جميع الأقطـار والآفاق، فهو الإمام الهمام، والأسد الباسل الضرغام، الذي مهـد الله تعالى بدولته البلاد، وأمن ببركة أيالته في مسالكها وممالكها العبـاد، ومزق به ثوب الفساد، و قطع بسيفه وسنانه وبادرتي قلمه الأعلـى ولسانه دابر أهل العناد، فسعد الإسلام بدولته، واعتز دين الله العزيـز في مدته، وخمدت نيران البغي بسعادته، وامتدت الأماني وشمل الأمان بحسن سياسته، نسأل (كذا) الله أن يصل لسيدنا ومولانـا عـادت (كذا) نصره وتمكينه، ويريه قرة العين في دنياه ودينه وبعد: فإن عبيدك الفقر (كذا) المساكين المنقطعين بجزيرة الأندلس وجملة عدهم ثلاثمائة ألف وأربعة وستون ألف منهم من رسايهم بغرناطة وغيرها خمسون و الباقي من عامة المسلمين، رافعين شكواهم، وما يلاقون من بلـواهم باكين متضرعين مستنصرين بعناية مولانا السلطان دام عزه و نصره لما أصبهم من أعداء الدين وطغاة المشركين، وما هم فيه مـن مكابـدة الكفار، ومقاسات (كذا) التضييق والإضرار، وجور أهل الشرك أناء وأطراف النهار، وتحريقهم إيانا بالنار، قد تكالب العدو علينا ومـدد السوء والضرر إلينا، وأحاطت بنا الأعداء من كل جانب، ورمونا عن قوس واحد بسهم صائب،و طالت بنا الأيام، وعاشت فينا يد النكاية والإيلام، وخذلنا جيراننا وإخواننا ببلاد المغرب من أهل الإيمان، وقد كان بجوارنا الوزير المكرم، والمجاهد في سبيل الله خير الدين وناصر

الدين وسيف الله على الكافرين، علم بأحوالنا، و ما نجده من عظيم أهوالنا لما كان في الجزائر، واجتمعت أهل الإسلام على إطاعة مولانا و محبته بالخواطر و الظماير (كذا)، وانتظم العدل و الشرع والأمان في البادي والحاضر، فاستغثنا به فأغاثنا وكان سببا في خلاص كثير من المسلمين، من أيدي الكفرة المتمردين، و نقلهم إلى أرض الإسلام، وتحت أيالة طاعة مولانا السلطان و لعمارة مدينة برشك وشرشال ونواحي تلمسان، فلما سمع الكافر اللعين بذلك و لم يقدر على منعنا بالسياسة والإهانة والحرق بالنيران، علم أنا اخترنا المصيبة في الأموال والأبدان، وأثرنا ديننا على سائر الأديان، فلما صدقة الضمائر، وبلغت القلوب الحناجر، خاف من عصبتنا واجتماع كلمتنا وتركنا أموالنا وأوطاننا و هجرتنا وفرارنا إلى بلاد الإسلام لسلامة ديننا، تحاير في أمره، وجمع إليه أهل تدبيره وحزبه، فدبروا ومكروا وهل يحيق المكر السيئ إلا بأهله؟ و اتفق رأيهم المعكوس، و تدبيرهم المنكوس، على قتال الجزائر، لئلا يبقى ببلاد المغرب لأهل الإسلام ناصر، فعاقبهم الله بعقاب أصحاب الفيل، وجعل كيدهم في تضليل، وأرسل إليهم ريح عاصف وموج قاصف (كذا)، فجعلهم بسواحل البحر ما بين أسير وقتيل، ولا نجا منهم من الغرق القليل، والآن اشتد غضبهم على أهل الإسلام، وهم يتوسلون بالرهبان

والأصنام، ونحن نتوسل بسيد الأنام إلى موجب الوجود ذو (كـــذا) الجلال والإكرام، **وهم عازمين (كذا) علـــى الجزائـــر**، والله تعـــالى هلكهم و ينصر دينه وهو نعم الناصر، يا مولانـــا ســـلطان الـــبرين والبحرين نصر كم الله، **المدد المدد لنصرة الجزائر لأنها سياج لأهل الإسلام وعذاب و شغل لأهل الكفر والطغيان**، وهـــي موســـومة باسمكم الشريف، وتحت إيالة مقامكم المنيف، **وقد أصبحت القلوب المنكسرة بها عزيزة، والرعية المختلفة بها مؤتلفة أليفة**، وطراز رونقها المجاهد في سبيل الله عبدكم الوزير الأجل **خير الدين**، الممتثل لأوامـــر مولانا، ونتاج عز الدنيا والدين، فإنه أحيا هذا الوطن، وجميع النواحي والسكن، **وأرعب قلوب الكفار**، وخرب ديار المردة الفجار، وأظهر نظام السلطنة العثمانية وأحكام مولانا نصره الله حتى تزينت بها الديار والأمصار، فنرغب ونطلب من مولانا نصره الله فيما **يراه من إرساله لهذا الوطن إن رءا** (كذا) مولانا صلاح (كذا) في ذلك فيكون ذلك غاية الإحسان لجميع أهل الإسلام وقهر ونكاية لحزب الشيطان، وقد اتفق جمعنا من المسلمين المذكورين على رفع الشـــكوى (كـــذا) إلى مولانا السلطان الأعظم سلطان الإسلام لا زال بالعز موصوف (كذا) وبالبهاء والنصر محفوف (كذا) **بأن يغيثنا بإرسال المجاهد خير الدين باشه** (كذا) **إلى الجزائر، فإنه لهذا الوطن نعم ناصر وجميـــع أهـــل**

الشرك منه خائف وحائر (كذا)، والسلام التام على المقام الشـريف العالي ورحمة الله بتاريخ أوائل شهر شعبان أحد شهور سـنة ثمانيـة وأربعين وتسعمائة.

ملحق رقم 4

قائمة التهم التي يجب التبليغ عنها ضد الموريسكيين (*)

- إذا قالوا أنّ الدين المحمدي هو الأحسن .
- وإنه لا يوجد غيره للوصول إلى الجنّة .
- وأن المسيح كان نبيا و ليس إلاها.
- وأن والدته لم تكن عذراء .
- وأنه إذا سمعنا أو رأينا أن المسيحيين الـــذين تم تعميـــدهم يقومون ببعض طقوس أعياد الدين المحمدي مثل الإحتفال بيوم الجمعة بأكلهم اللحم وقولهم بأنه حلال وكذلك تزييهم بقمـــيص نظيـــف وألبسة أحسن من بقية الأيام الأخرى .

* - قائمة التهم هذه كانت تنشر سنويا في يوم من أيام الأحد، على شـــكل قـــانون، يوجب على كل المسيحيين الإبلاغ عن أي تصرّف مذكور يقوم به الموريســـكيون، و إذا لم يبلغ أحدهم خلال 06 أيام يعاقب بتهمة إرتكاب خطأ فادح (عدم التبليغ) . ووضع هذه التهم " ألفونسو مانريك " المفتش العام لمحاكم التفتيش " وأسقف إشبيلية.

- إذا ذبحوا الدواجن أو الحيوانات، قاطعين العنق بسكين، وتاركين إشارة على الرأس، ومحولين وجهة الرأس نحو المشرق وقائلين "بإسم الله " ورابطين أرجل الحيوان المذبوح .

- إذا رفضوا أكل لحم الحيوانات الغير المذبوحة أو تم ذبحها من طرف النساء .

- إذا ختنوا أبناءهم أو لقبوهم بأسماء عربية أو أظهروا الفرح بتلقيبهم بتلك الأسماء و نادوهم بها .

- إذا قالوا أنه وجب الإيمان بالله و بمحمد نبيه .

- إذا حلفوا بكل الإيمان القرآنية .

- إذا قاموا بصيام رمضان، وراعوا ذلك أثناء عيد الفصح وسلموا بعض الصدقات وأنهم لم يأكلوا و لم يشربوا حتى لا يلاحظوا النجمة الأولى .

- أنهم إذا قاموا بالسحور، واستفاقوا ليأكلوا قبل طلوع النهار أو غسلوا أفواههم و رجعوا إلى فراشهم .

- أنهم إذا قاموا بالوضوء، و غسلوا السواعد و الأيدي حتى المناكب والوجه والفم والأنف والأذنين والساقين والأعضاء الجنسية

- إذا قاموا بالصلاة وحولوا وجهتهم إلى الشرق وتم ذلـــك فوق حصير أو قطعة قماش، ثم قاموا و نفضوا رؤوسهم، قائلين بعض الكلمات العربية وقائمين بغيرها من الصلوات المحمدية .

- إذا إحتفلوا بعيد الأضحى بعد قيامهم بالوضوء .

- إذا تزوجوا على المنهج المحمدي .

- إذا غنوا الأغاني العربية و نظموا حفلات أو رقصات وغنوا بآلات موسيقية ممنوعة .

- إذا وضعوا على أبنائهم أو أشخاص أخرين شكل يد بهـــا خمس أصابع كذكرى للأوامر الخمسة .

- إذا إحترموا تعاليم الإسلام الخمسة .

- إذا غسلوا موتاهم و لفوهم في كفن من قمـــاش أبـــيض، ودفنوهم في أرض بكر أو في قبر عميق وأضجعوهم فيه، وواضـــعين حجارة تحت رؤوسهم، وتاركين على اللحد غصونا خضراء وشـــيئا من العسل والحليب وأكلات أخرى .

- إذا تذكروا محمدا عند الحاجة ، وانه نبي اللّه ورســـوله وأن أول معبد للّه هو بيت مكة ويقولون أن محمدا دفن بها.

- إذا قالوا أن العربي ينقد بالتجائه إلى دينه وأن اليهودي إلى عقيدته .

- وأن أحدهما إجتاز إلى بلاد المغرب أو غيرها وإرتـــد عـــن المسيحية .

- إذا قالوا أو فعلوا أي شيئ مرتبط بالدين المحمدي "

ملحق رقم 5

* رسالة مفتي وهرا ن إلى الموريسكيين سنة 1504 م *

"الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه تسليما.

إخواننا القابضين على دينهم، كالقابض على الجمر، من أجزل الله ثواهم، فيما لقوا في ذاته، وصبروا النفوس والأولاد في مرضاته، الغرباء القرباء إن شاء الله، من مجاورة نبيه في الفردوس الأعلى من جناته، وارثوا سبيل السلف الصالح، في تحمل المشاق، وإن بلغت النفوس إلى التراق، نسأل الله أن يلطف بنا، وأن يعيننا وإياكم على مراعات حقه، بحسن إيمان وصدق، وأن يجعل لنا ولكم من الأمور فرجا، ومن كل ضيق مخرجا، بعد السلام عليكم، من كاتبه إليكم من عبيد الله أصغر عبيده ، وأحوجهم إلى عفوه، ومزيده، عبيد الله تعالى أحمد ابن بوجمعة المغراوي ثم الوهراني ، كان الله للجميع بلطفه و ستره، سائلا من إخلاصكم وغربتكم حسن الدعاء، بحسن الخاتمة والنجاة من أهوال هذه الدار، والحشر مع الذين أنعم الله عليهم من الأبرار، وموكدا عليكم في ملازمة دين الإسلام آمرين به من بلغ من أولادكم. إن لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطويتكم، فطوبي للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس، وإن ذاكر الله بين الغافلين كالحي بين الموتى، فاعلموا أن الأصنام خشب منجور، وحجر

جلمود لايضر ولاينفع، وأن المُلك ملك الله ما اتخـــد الله مـــن ولـــد وماكان معه من إله . فاعبدوه، واصطبروا لعبادته، فالصـــلاة ولـــو بالإيماء، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أو رياء، لأن الله لاينظر إلى صورتكم ولكن إلى قلوبكم، والغسل من الجنابة ولو عوما في البحور، وإن منعتم فالصلاة قضاء بالليل لحق النهار، وتسقط في الحكم طهارة الماء، وعليكم بالتيمم ولو مسحا بالأيدي للحيطان، فإن لم يمكـــن فالمشهور سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء والصعيد إلا أن يمكنكم الإشارة إليه بالأيدي والوجه إلى تراب طاهر أوحجر أو شـــجر ممـــا يتيمم به، فاقصدوا بالإيماء، نقله ابن ناجي في شرح الرسالة لقوله عليه السلام : فأتوا منه ما استطعتم. وإن أكرهوكم في وقت صـــلاة إلى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فأحرموا بالنية، وأنووا صلاتكم المشروعة، وأشيروا لما يشيرون إليه من صنم، ومقصـــودكم الله ، وإن كان لغير القبلة تسقط في حقكم كصلاة الخوف عند الإلتحـــام، وإن أجبروكم على شرب خمر، فاشربوه لابنية إســـتعماله، وإن كلفـــوا عليكم خنزيرا فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم ، ومعتقدين تحريمه، وكذا إن أكرهوكم على محرم، وإن زوجوكم بناتهم ، فجائز لكونهم أهـــل الكتاب، وإن أكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم، فاعتقدوا تحريمـــه لولا الإكراه، وأنكم ناكرون لذلك بقلوبكم، ولو وجدتم قوة لغـــير تموه. وكذا إن أكرهوكم على ربا أو حرام فافعلوا منكرين بقلوبكم،

ثم ليس عليكم إلا رؤوس أموالكم، وتتصدقون بالباقي، إن تبـــتم لله تعالى. وإن أكرهوكم على كلمة الكفر، فإن أمكنكم التورية والإلغاز فافعلوا، وإلا فكونوا مطمئني القلوب بالإيمان إن نطقتم بها نـــاكرين لذلك ، وإن قالوا اشتموا محمدا فإنهم يقولون له ممد، فاشتموا ممــــدا، ناوين أنه الشيطان أو ممد اليهود فكثير بهم اسمه . وإن قالوا عيسى ابن الله، فقولوها إن أكرهوكم، وانووا إسقاط مضاف أى عبد اللاه مريم معبود بحق . وإن قالوا قولوا المسيح ابن الله فقولوها إكراها، وانــــووا بالإضافة لملك كبيت الله لا يلزم أن يسكنه أو يحل بـــه، وإن قـــالوا قولوا مريم زوجة له فانووا بالضمير ابن عمها الذي تزوجها في بـــني إسرائيل ثم فارقها قبل البناء، قاله السهيلي في تفسير المبهم من الرجال في القرآن . أو زوجها الله منه بقضائه وقدره. وإن قالوا عيسى تــــوفي بالصلب، فانووا من التوفية والكمال والتشريف من هذه، وإماتتـــه و صلبه وإنشاد ذكره، وإظهار الثناء عليه بين الناس، وأنه اســـتوفاه الله برفعه إلى العلو، ومايعسر عليكم فابعثوا فيه إلينا نرشدكم إن شاء الله أن يديل الكره للإســـلام حتى تعـــبـــدوا الله ظـــاهرا بحـــول الله من غير محنـــة ولا وجلة، بل بصدمة الترك الكرام. ونحن نشهد لكم بين يدي الله أنكم صـــدقتم الله ورضيتم به. ولابد من جوابكم. والسلام عليكم جميعا. بتاريخ غرة رجب عام عشرة وتسع مائة، عرف الله خيره ".

" يصل إلى الغرباء إن شاء الله تعالى " .

ملحق رقم 6

نماذج للكتابة باللغة اللاأحمادية

[illegible]

ثُ أنّكْ : بالقابانْدار إشْرَاكْ نادُنْدَاشْليُ أُشْلَدْ ر

~~- بُجلنْ ناجْمْنْ كاأنبْوابْ ابْكاأمْهْراذْ بانْغرابْدَكاوار~~

إنْكاراز بُرْبانْشُر تبانانْ مشْجرْنْقاز بُزاذُ انْ هاجْر

اُأُشْرْ. بُرلْمرْ كاجْرلْبوابْ. نْ باشْتْ شْنْ آبْزاجْدْ بالنْبي

عْنْ بالنْ. بالنْ عْمْ بالنْبي : بُواشْقاعْيْدْ : ناالآبْ شْرشْ الآ

أرْداشْيُنْ بْنْ كاشْدا بُارْسيبُ بْرشْ الرْ : قْرابالْ أرْدا

تْسْيْنْ . إنْشْرعانْ الْ شيْدُبُواراشْ مْبْ بِكُلْتْدْ : بْتيبانْدا

قامُنْ جارانْشْ شْاخْرْنْ لْنْ بانْجارْماذْذاشْ بانْشْشْبرْشْ

سيْجيشْ كافُونْدا أنْجابْ لْحرشْ بانْلبارْشْا بارْشْترْ اشْاأمْ

بيبْ « فُونْدْ اُنْ آنْدْ بانْدْرابْيْا تْرشْقْلْ أكْبُ الفْنْدْ بانْغرْبا

بيا جْنْتْرشْيمْشْمْ. لاشْقانْ لْزاشْيْشْيْرشْ لَا أمْنانْشْتْنْتْ الشْ

نْحُوانْشْ : ماجْرشْا بشْبا المْنْوالْبْ باجْقا ماالاَّزانْسيْدْ : مْشْ

باشْنْشْتْ إشْبْلْنْشْتانْ نُوابْشْ خالْنْ ناشْنْ زابابايكْشْ

لشْايْماشْ داباعالْمْنْ لُشْبْشاذْ دماشْتيْمْشْ : لُشْبُوا

نُشْمْشْلماشْرشْا انْدا داشْرُ بانْبابْاشار نْيا أنْ بانْقتا

بْتارْ شيْدْ بْلْبارْ بْرشْشْيْغْرْبْارْشْه يا نْ أرْشْنْ بْلدْ بْنْبْر

شيْرْ عنْ أتانْدانْسْبْ شامْرْدْ هاباشْ أشْرا إجْنْجْرْمْ

كُرْخمْ الله سُبْحانَهُ « هاميْرْ شْنْدا كالْرْ. بُوابانْشْرْ اُنْ

مُشْلُمْ داشْكْسْدْ. كابارْشْابْرْتْ الْغْرْيُبْدْ بكْرْ عْا

انْ لْرْخْمْ الله سُبْحانَهُ. كامْيْرْ كوشْرزْ لاكُبْوادارْ لْمْوارْشْا

الْجْرْ زْا أمْدرْا. ناهِمْنْ يْبارْمُشْ « بُزانْ انْ أنْشْغْنْ.

إبْ بارْشْ شْيْبْنْ بُواشْمْرْشْ عالْشْمْلْمْرْ شْوانْشْ الشْ

نشْرْشْمْ بِشْنْبْشاشْ شْنْ بانْتْ أقالْنْ كاانْ بْقْ زابارْتا

المصادر و المراجع

* - المصادر و المراجع :

أ - الأجنبية :

01 – Aguilar gaspar : explusion de los morescos de espania por la SCR magestad del rey don philip III. Valancia 1610.
02 - Allen (W.ED) : Problems of Turkish In The 16 century . London 1963
03 - Alvaro . Gomez : El libro de las Batallas . Madrid . 1975 .
04 - Aznar Cardona :Expulsion Justificada de los Moriscos Espanoles y suma de la excelencias christianas de nuestre Rey Don phelip El Catolico Madrid 1612
05 - Barbara : Morisque du Royaume de Valence . Alger 1983
06 - Brandit (c) : Charle Quint et Son Temp (1500 - 1558) Paris 1954 .
07 - Bertolome Bennasser : Un Siecle d'or Espagnol . Paris 1982 .
08 - Braudel (F) : La Medditeranée et le Monde Mediterraneéne à lépoque de
Phelipe II . 2 éme ed . Paris 1949 .
09 - Bronat y Barrachina : Los Moriscos Espanoles y su expulsion -
Valencia 1901 .

10 - Bustamente Perez : Compenido de Historia de Espana - Madrid 1946 .
11 - Carrasco Urgotti : El Problema Moriscos en Aragon en el Comienzo Del
Reinado de Felipe 2 . Madrid 1969 .
12 - Caro Baroja : Los Moriscos del Reino de Grenada - Madrid 1957 .
13- Cardaillac . Luis : Morisque et Chretiens Un Affrontement Polemique
1492 - 1640 .Paris . 1977 .
14 - Cardaillac . le passage des moresaues en Languidoc – motpellier 1970.
15 – claude cohen : el islam desde origines hasta el comienzo del Impirio otomano. ;adrid 1972.
16 - Charle - A -Julien : Histoire de L'Afrique du Nord . Paris 1964 .
17 - Charle André (J) : Histoire de l'Afrique du Nord de la Conquete Arabe
à 1830 . Paris 1964 .
18 - Channu (P) : L'Espagne de Charle Quint . Paris 1972
19 - Contre de Circout : Histoire des Arabe d'Espagne . Paris 1970.
20 – Danvilla y collado : explusion justificada de los moriscos. Madrid 1889.
21 - Dominguez Ortiz : Los Cristianos Nuevos - Grenada 1949 .
22 - Florecio (J) : Condicion Social de los Moriscos de Espana . Madrid 1875 .
23 - Fonseca - p . d : Relacion de los Moriscos del Reyna de Valencia
Roma . 1612 .

24 - Fournel . J - G : Les Morisques Aragonais et Linquisition de Sarragosse
(1540 - 1620) Montepellier 1980 .
25 - Fransesco de Paula - V.R .V : Leccion Elementales de Historia Critica de
Espana . 2 ed . Grenada 1899 .
26 - Fransesco Pifferrer : Nobilario de los Reinos y Senorios de Espàna .
Madrid 1860 .
27 - Fray Henrique . F : Memorias de la Reinas Catolicas . 2 eme ed .
Madrid 1770 .
28 - Jean Marc P : Recherche sur la Comedia Los Moriscos de Hornachos
Madrid 1972 .
29 - Jean Pigon : Une Geograhie de l'Espane Morisque . Tunis . 1973
30 - Joseph .Perez : L' Espagne du 16eme siecle . Paris 1973 .
31 - Kamen . H : Lainqusition espanol . Paris 1966 .
32 - Lapeyre (H) : Geographie de l 'Espagne Morisque . Paris 1959 .
33 - Dr Lea : A History of The Inquisition of Spain - New york 1906.
34 - Dr Lea : The Moorish Of Spain Their Convesion And Expulsion . London 1901
35 - Liorente : Historia Critica de la Inquisicion de Espana - Bercolona 1835 .
36 - Longas Pedro : Vida Relegiosa de Los Moriscos . Madrid . 1915

37 - Lunche (J) : spain Under The Hasburgs . London 1965
38 - Marmol Carvajal : Historia de la Rebllon y Castigo de los Moriscos
del reino de Grenada - Madrid 1946 .
39 - Menendez y Pelayo : Historia de Espana . Madrid 1941 .
40 - Mercedes Garcia Arenal : Los Moriscos y la inquisition / procesos del
Tribunal de Cuenca - Madrid 1978 .
41 - Modesto la Fuente : Historia General de Espana - Madrid 1862 .
42 - Miguel Angel : Datos Demograficos Sobre Los Musulmanes de Grenada
y Castilla en el siglo 15 . Bercelona 1972 .
43 - Miguel la Fuente : Historia de Grenada . Grenada 19
44 - Nieva (F) :La Inquisicion y los Moriscos Extremenos . Badajoz 1978 .
45 - Nieva (F) : En Frentamento entre Moriscos y Cristianos viejos Paris 1983
46 - Pierre Ponsot : Les Morisque , La Culture Irrigue du blé . et le problem
de La Decadence de L'Agriculture Espagnole au 17 eme siecle Paris
1971 .
47 - 17 - Pierre Villar : Histoire de L'Espagne . Paris 1958 .
48 - - Prescott . W : History of Ferdenand and Isabella the Catholico .
London 1855 .

49 - Ramon Menendez : Historia de Espana el Siglo del Quijote . Madrid 1986
50 - Raphael Carrasco : Le Problem Morisque dans les ils de la Mediterannée
Tunis . 1984 .
51 - Ravaillard (M) : Morisque Bibliographie . Paris 1982 .
52 - Regla Juan : Estudios Sobre Los Moriscos . Bercelone 1974 .
53 - Ricardo Garcia(g) : Origines de la inquisition Espnola EL Tribunal de
Valencia Bercelone . 1976 .
54 - Riu . Riu (M) : Leccion de Historia Medieval - Bercelona 1969 .
55 - Sanchez (P.A) : Los Moriscos de Hornachos - Madrid 1964 -
56 - Stanley Lane Poole : The Moorsin Spains - Beirut 1967 -
57 - Vincent (B) : Les Bandits Morisques en Adalousie . Tunis 1974 .

ب <u>العربية</u> :

01 - أحمد رائف : و تذكروا من الأندلس الإبادة . د.م.ج. الجزائر 1991 .
02 - أسعد حومد : محنة العرب في الأندلس - بيروت 1980 .

03 – إبن الخطيب (لسان الدين) : الإحاطة في أخبار غرناطة – تحقيق محمد عبد الله عنان . القاهرة 1973 .
04 – إبن عبد الرفيع الأندلسي : الأنوار النبوية في أباء خير البرية ، الخزانة العامة بالرباط ،المكتبة الكتانية ، مخطوط رقم 2648 .
05 – أرسلان شكيب : خلاصة تاريخ الأندلس ، بيروت 1930 .
06 – أرسلان شكيب : أخبار العصر في إنقضاء دولة بني نصر – لمؤلف مجهول – بيروت 1925 .
07 – بشتاوي عادل : الأندلسيون المواركة – مطبعة أنترناشيونال – القاهرة 1983 .
08 – توفيق الطويل : الإضطهاد الديني في المسيحية و الإسلام – ط1 .دار الكتاب العربي 1947 .
09 – حتاملة محمد عبده : التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين ط1 . عمان 1980 .
10 – الحجّي عبد الرحمن : محاكم التفتيش الغاشمة و أساليبها . الكويت 1983 .
11 – حمادي عبد الله : الموريسكيون و محاكم التفتيش في الأندلس 1492 – 1616 م، الجزائر 1989 .

12 - حمودة علي محمد : تاريخ الأندلس السياسي و العمراني و الإجتماعي ط1 1957 .
13 - الذنون عبد الكريم : آفاق غرناطة .ط1 / دمشق 1988 .
14 - رزوق محمد : الهجرة الأندلسية إلى المغرب - رسالة دكتوراة . الدارالبيضاء 1983 .
15 - عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية، الإسكندرية 1980.
16 - عنان عبد الله : نهاية الأندلس و تاريخ العرب المتنصرين ط1 .القاهرة 1949 .
17 - قشتيلو محمد : محنة الموريسكوس بإسبانيا .تطوان 1980 .
18 - الشهاب الحجري : ناصر الدين على القوم الكافرين تحقيق.
19 - كاتب شلبي : تحفة الكبار في أسفار البحار . إسطمبول 1911 م.
20 - محمود مكي : تاريخ الأندلس السياسي . بيروت 1998

21 – مركز دراسات الوحدة العربية : الحضارة العربيــة فــي الأندلس ، ج1 ، تحرير د:ســلمى الخضــراء الجيوســي .ط1 بيروت – ديسمبر 1998 .
22 – المقري (التلمساني) : أزهار الرياض في أخبار القاضي عيّاض ، القاهرة 1939
23 – المقري (التلمساني) :نفح الطيب من غصــن الأنــدلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس 1968 بيروت .
24 – مظهر علي : محاكم التفتيش بإسبانيا ، البرتغال ، فرنسا . القاهرة 1947 م
25 – هازفي ليونارد باتريك : تاريخ الموريسكيين السياسي و الإجتماعي و الثقافي ضمن الحضارة العربية فــي الأنــدلس . بيروت 1998 ، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة .
26 – الونشريسي أحمد : المعيار المغرب و الجامع المغرب في فتاوي أهل إفريقية و الأندلس و المغرب – بيروت 1981 –12 جزء –

الدوريات :

أ - الأجنبية :

1 - Annales .Eco .Societe . Civilisation : N° 4 / Paris 1949
.
Braudel (F) : Conflit et refus de Civilisation Espagnol et Morisque
du 17eme siecle .
2 - Annales E-S-C : Anné 1965 .
Tuliohalperin Donghi « Recouvrement de civilisation - les Morisque de Royaume de Valence au 16 eme siecle .
3 - Boletin Hispanique : / Ano 1972 / n° 1 et 2 .
J-M Pelerson : Recherche sur la Comedia de los Moriscos de Hornachos .
4 - Journal Asiatique : Anné 1927 Paris .
Cantineau : Lettre du Mufti d'Oran .
5 - Melange de la Casa de Valesquez : Paris 1965 - T:1 .
J.Le Flem : Les Morisque du Nord Ouest de l'Espagne en 1594
6 - Boletin de la Universsidad de Grenada : n°: 11 / 1949 .
Dominguez Ortiz ; Los Cristianos Nuevos .
7 - Revue Historique : / 1961 n°01 .
Channu Pierre : Minorite et conjoncture .
8 - Revue Africaine : / 1928 - p : 358 .
Braudel (F) : Les Espagnoles et L'Afrique du Nord 1492 - 1577 .

9 - Revista de Historia Militar Unita : ano7 /1963 /n°12
Joaquin Sotto ; Organizacion Militar de los reys Catolicos (1474 - 1517) .

ب - العربية :

1 - الأصالة : التميمي عبد الجليل / رسالة مسلمي الأندلس إلى السلطان سليمان القانوني
سنة 1974 / .

2 - الأصالة : د / الصباغ ليلى : ثورة مسلمي غرناطة 1568 م سنة 1975 / عدد 27 / ص : 116 - 175 .

3 - مجلة تاريخ و حظارة المغرب : مولاي بلحميسي : غارة شارل الخامس على مدينة الجزائر بين المصادر الإسلامية و المصادر الغربية - عدد 6 .7 / الجزائر 1969 .

4 - مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد : حسين مؤنس : أسنى المتاجر فيمن غلب على دينه من النصارى و لم يهاجر ، عدد 1 و 2 . 1957 مدريد .

5 - المجلة التاريخية المغربية : التميمي عبد الجليل : الدولة العثمانية و قضية الموريسكيين - عدد 23 - 24 / سنة 1981 .

فهرس المواضيع

فالنهاية المأسوية للأمة الأندلسية قلما نجد لها نظيرا في التاريخ، رغم أن أمما عديدة عرفت نهاية تراجيدية، فالدارس يجد نفسه وهو يتصفح يوميات المسلمين الداخلين تحت سلطان الإسبان عنوة، فثنائية التحدي قائمة بين الطرفين الإسباني والمسلم، فالإسبان ممثلين في شخص الملكين فرديناند وإيزابيلا والكنيسة الكاثوليكية يسعون جاهدين إلى تنصير المسلمين بكل الوسائل والأساليب ضاربين عرض الحائط كل القيم والمبادئ الإنسانية، والمسلمين من جهتهم يدافعون باستماتة لا نظير لها من أجل المحافظة على دينهم وأرواحهم وسط بيئة معادية.

المؤلف

دار هومة
للطباعة والنشر والتوزيع
34 حي لابروفار - بوزريعة - الجزائر
الهاتف: 021.94.19.36 الفاكس: 021.94.17.75
021.94.41.19 021.97.75.51

ISBN. 9961 - 66 - 801-4 . ر.د.م.ك